مجلة مركز بحوث ودراسات

المدينة المنورة

العددان الرابع عشر والخامس عشر/ رجب - ذو الحجة ١٤٢٦هـ / أغسطس ٢٠٠٥ - يناير ٢٠٠٦م

١٤
١٥

- بيرتون وصورة المدينة في رحلته
- أثر الأوقاف على الحياة الثقافية والاقتصادية في المدينة المنورة في العصر المملوكي
- أثر درجة الحرارة على استهلاك الكهرباء في المدينة المنورة
- من النباتات الطبية في المدينة المنورة : شجرة الأراك

بيرتون وصورة المدينة في رحلته

عام١٢٦٩هـ / ١٨٥٣م

د/محمد بن عبد الهادي الشيباني

الجامعة الإسلامية ـ قسم التاريخ ـ

تمهيد

إن توافد عدد كبير من الرحالة الغربيين إلى الجزيرة العربية من مختلف المشارب والاتجاهات وكل حسب الهدف الذي جاء من أجله ، قد ساعد بشكل كبير على إعطاء معلومات مهمة عن أوضاع الجزيرة العربية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية والحياة البيئية وغير ذلك من الفوائد الكبيرة المهمة لتلك الفترة من تاريخ الجزيرة العربية .

ومع ذلك فإن ما أورده الرحالة من معلومات عديدة عن أوضاع الجزيرة العربية ليست حقائق لا تقبل المناقشة أو المجادلة فالرحالة الغربيون من مشارب متغايرة وبعضهم تنقصه الدقة والأمانة العلمية ، إضافة إلى دوافعهم الدينية المسيحية حينما يكتبون عن المسلمين .

لقد كانت الحجاز (مكة المكرمة ، المدينة المنورة) تمثل تحديّا كبيرا للأوربيين حيث إنه لا يجوز إلا للمسلمين ارتياد هاتين المدينتين المقدستين ، لذا حاولوا جاهدين الوصول إليهما ونقل مشاهداتهم عنهما لمواطنيهم في أوروبا .

ومن هنا ونظرا لأهمية تلك الرحلات فقد وقع اختياري على رحلة بيرتون إلى الحجاز ، وبالتحديد مشاهداته عن المدينة المنورة ، حيث خصّص لها جزءاً كاملا ، تحدّث فيه بالتفصيل عن المدينة ، وأنحائها ، وعادات أهلها ، وتقاليدهم في المناسبات ، وفي أعيادهم ، وأحزانهم ، وغير ذلك من الأمور الاجتماعية ، والمعيشية في المدينة .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ولعل الأهمية التي تحملها رحلة بيرتون أنها جاءت بعد رحلة بوركهارت عام ١٨١٥م . حيث حاول بيرتون أن يسد الثغرات التي لم يتناولها بوركهارت ، بسبب مرضه ، وقلة مكوثه في المدينة[١] .

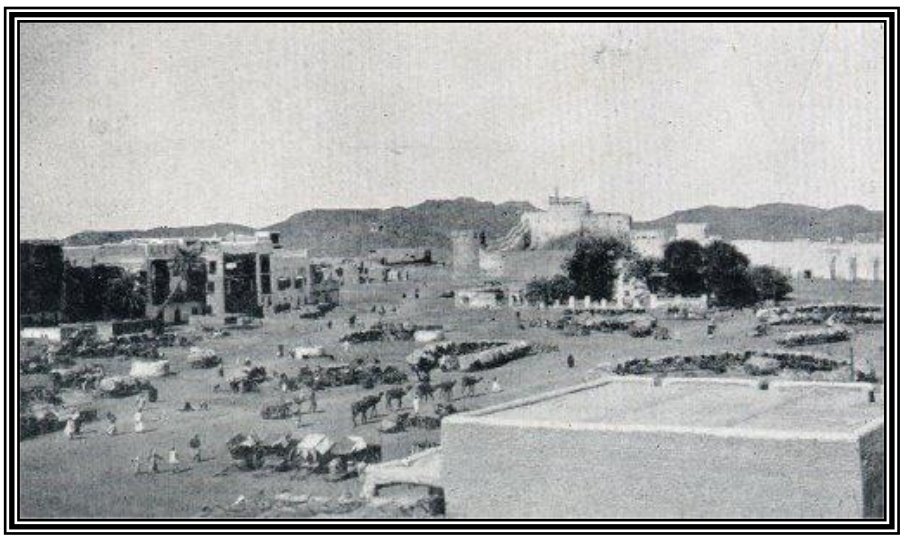

وتظهر هذه الرحلة الفارق الثقافي والعلمي آنئذ بين العالم الغربي المتقدم ، وبين مجتمعات المسلمين ، التي يسيطر عليها الفقر والجهل والتخلف والجمود الفكري والعلمي .

ومن القراءة الأولية لهذه الرحلة يتضح بشكل جلي ، استعداد العالم الإسلامي للوقوع تحت الاستعمار الغربي ، وقابليته للسيطرة ، والتبعية للغير ، بسبب التراكمات الكبيرة من ثقافة الخوف ، والفساد والإفساد في كثير من مناحي الحياة .

الدوافع الأوربية للتعرف على المسلمين وبلدانهم :

حقق المسلمون انتصاراً ساحقاً على أتباع الديانة المسيحية ، فبيزنطة فقدت في القرن الهجري الأول القرن

(١) بوركهارت ، رحلات في شبه جزيرة العرب ٢٩٣ - ٢٩٤ ترجمة : عبد العزيز الهلابي ، عبد الرحمن الشيخ . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١/١٤١٣هـ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

السابع الميلادي مستعمراتها في آسيا وشمال أفريقا باستثناء آسيا الصغرى على أيدي المسلمين ، ثم اضطرت إلى التخلي عن آسيا الصغرى للسلاجقة المسلمين في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي بعد معارك كانت فيها الحرب سجالا بين الجانبين[١]، وبسقوط صقلية في يد المسلمين عام ٢٨٩هـ / ٩٠٢م فقد البيزنطيون السيادة على البحر ، وفي الغرب فتح المسلمون معظم إسبانيا ، ولم يبق منها سوى شمالها الغربي ، بقيت صقلية تحت الحكم الإسلامي حتى غزاها النورمان بقيادة الكونت روجر (Cont Roger) ، واستولى عليها عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١م وشهدت صقلية تحت حكم روجر الأول امتزاجا فريدا بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية ؛ إذ كان روجر على مسيحيّته مُعجبا إلى درجة عظيمة بثقافة المسلمين ، وفي صقلية ترجم عدد كبير من المؤلفات العربية والإغريقية في مختلف العلوم إلى اللاتينية ، وهكذا تدفّق على أوروبا تراث علمي هائل عن طريق صقلية[٢] وبعد نهاية الحروب الصليبية أدرك رجال الدين في الغرب أن الانتصار على المسلمين في حلبات القتال أمر بعيد المنال ، وأنه لا سبيل إلى محاربة الإسلام وتعاليم الرسول ﷺ إلا بالحكمة ومعرفة لغة المسلمين وديانتهم ، ولذا نجد القسيس بطرس رئيس (دير كلوني)[٣] المتوفى سنة ١١٥٧م قد وضع خطة عمل لترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية ،

(١) انظر سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى (١/ ٤٣٤ -٤٣٥) ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٨/١٩٨١م .

(٢) انظر بتوسع كتاب : ستانوود كب : المسلمون في تاريخ الحضارة / ترجمة محمد فتحي عثمان / الدار السعودية للنشر والتوزيع / جدة / ط٢/١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

(٣) يقع دير كلوني بالقرب من الحدود الفرنسية الألمانية على بعد عدة أميال من مدينة ماسون . وقد بدأت الحركة الكلونية ضيقة في بداية الأمر، ثم أخذت تتسع تدريجيا إلى أن أصبحت في القرن العاشر الميلادي مثلا يحتذى به من أمثلة التغيير والتطور . وكان أساس نظام كلوني هو الاستقلال التام عن السلطات الدينية والدنيوية ، والاتصال المباشر بالباوية ، والقضاء على استقلال الأديرة عن بعضها ، وأخيرا المناداة بإصلاح الكنيسة والبابوية من المفاسد والشرور التي تغلغلت فيهما . كما اعتنى رهبان كلوني بالعلوم والزراعة والأعمال الأدبية . ومن هنا كان لهذه الحركة آثارها البالغة الأهمية ، فأصبحت حركة دولية بعد أن امتدت حدودها خارج فرنسا ، ومن أشهر رؤساء الأديرة الكلونية القدامى القديس اودو St . Odo (٩٢٦ – ٩٤٢م) والقديس أوديلو St . Odilo(٩٩٤ – ١٠٤٩م) . ولهما دور كبير في تشجيع الحرب الصليبية ضد المسلمين في الأندلس ، وفي تشجيع الحملات الصليبية ضد المسلمين في بلاد الشام . (ج . ج كولتون ، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ١٧٢، ترجمة :جوزيف نسيم ، دار النهضة العربية ، بيروت ط٣/١٩٨١م) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كما ترجم بعض الكتب في التاريخ الإسلامي وعلم الكلام من العربية إلى اللاتينية[١].

إن فكرة التنصير التي أدت إلى ترجمة القرآن والاهتمام بالعربية وعلومها شهدت توسعا من خلال تنقلاّت الوعّاظ الدينية لطائفتي الدومينيكان[٢] والفرنسيسكان[٣]، فالنضال ضد الإلحاد - الإسلام في نظرهم - عن طريق الوعظ والإرشاد والحوارات يتطلّب الاهتمام بتعاليم الخصم ، والوقوف على حججه ، لذا حرصت القيادات الروحية في أثينا على تثقيف المريدين ، وذلك بغرض خلق كوكبة متعلّمة ، تتّعرف على اللغة العربية ، وأسرار الديانة الإسلامية[٤]. وفي سنة ١٣١١م أفلحت مساعي (رايمو ندرس Raymondres) أحد كبار المنصرين الإسبان ، بإقرار المجمع الكنسي العام في فينا قانونا ينص على تعيين مدرسين كاثوليكيين في كل جامعة من الجامعات الخمس : (باريس - أكسفورد - بولونيا - سالامنكا - وجامعة الإدارة المركزية البابوية) ، يُدرسون اللغات اليونانية والعربية والعبرية والكلدانية ، وبذلك يكون مطلبه الذي نادى به المتعلق بالثقافة اللغوية للمنصرين قد تم الاعتراف به جذريا[٥].

---

(١) يوهان فوك : تاريخ حركة الاستشراق ١٥ ، تعريب : عمر لطفي ، دار قتيبة ، دمشق ، ط١/١٩٩٦م ؛ عبد الرحمن بدوي : موسوعة المستشرقين ٦٨ -٦٩ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٢/١٩٨٩م ؛ غوستاف لوبون ، حضارة العرب ٥٦٧ ، ترجمة : عادل زعيتر ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ط١/١٩٦٩م .

(٢) الدومينيكان أو الأخوة الواعظون : رهبانية أسسها القديس دومينيك Dominic في تولوز ١٢٠٦م ، لدحض البدع (الهرطقة) داخل الكنيسة وخارجها . كانوا أرباب التعليم الفلسفي واللاهوتي في القرون الوسطى . (ج . ج كولتون ، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ١٧٤ ؛ المنجد في اللغة والأعلام ٢/٢٥٠) .

(٣) الفرنسيسكان : رهبانية أسسها القديس فرنسيس الأسيزي ١٢١٠م ، وجعل الفقر أساسا لها . هم " حراس الأراضي المقدسة في الشرق " . نشطت ارسالياتهم التعليمية والتبشيرية في الشرق ، منها : القدس ١٢٢٩م ، دمياط ١٢٤٩م ، القاهرة ١٣٢٠م ، بيروت١٤٤٠م ، حلب ١٥٧١م ، طرابلس لبنان١٥٨٢م ، الناصرة وصيدا ١٦٣٢م . (ج . ج كولتون ، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ٦٤ ؛ المنجد في اللغة والأعلام ٢/٤١٢) .

(٤) انظر يوهان فوك : المصدر السابق ٣٥ .

(٥) انظر بتوسع عن نشأة الجامعات في أوربا : جوزيف نسيم ، نشأة الجامعات في العصور الوسطى ١٢٩ وما بعدها ؛ ٢٣٧ – ٢٧٤ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط٢/١٩٨١م .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إن قرار مؤتمر فيينا بتنصيب أستاذين في كل جامعة من الجامعات الأوربية الخمس ، لتدريس اللغات اليونانية والعربية والعبرية والكلدانية لم يؤد إلى القلق حول الأصل العتيق للكتاب المقدس وتفاسيره ، ولا إلى أي اهتمام لغوي تاريخي باللغات وآداب الشرق فحسب ، بل تأكّد للمنصرين أهمية الإلمام باللغات للسيطرة على شعوب الشرق ، وهذا ما كشف عنه كتاب استرداد الأرض المقدسة (Drrecuper Ationterra Sancte) لمؤلفه الناشر الفرنسي بييرا دوبوا في سنة ١٣٠٦م ، وهذا الكتاب يوضح برنامج استعمار الشرق من قبل شعوب أوربا المسيحية، تحت إمرة المملكة الفرنسية ، والمطالبة بتأسيس مدارس لغوية لا تعنى بتثقيف الموظفين والضباط والمترجمين والمفاوضين والمنصّرين والأطباء ، الذين تتطلبهم مثل هذه السياسة الاستعمارية فحسب ، بل فتيات أوربيات أيضاً ، منهن على سبيل المثال اللاتي يتزوجن فيما بعد من قياديين شرقيين يجري إعدادهن لمستقبل حياتهم[١] ، ونظرا لأهمية اللغة العربية ومدى انتشارها وحيويتها في تلك السنين نجد أن فلهلم بوستل المستشرق الفرنسي الذي ولد سنة١٥١٠م ، والذي يعود الفضل إليه على أوربا في جلب المخطوطات الشرقية ، يقول في كتابه قواعد اللغة العربية : ((لا أحد يستطيع الاستغناء عن طرق الطب العربية ، وعلاجه وأدويته ، وأنّ ما قاله ابن سينا في صفحة أو صفحتين يزيد على ما ذكره جالينوس في خمسة أو ستة مجلدات ضخمة))[٢]

(١) انظر يوهان فوك ، مصدر السابق / ص٣٥ .

(٢) المصدر السابق / ص٤٩ ، عبد الرحمن بدوي / موسوعة المستشرقين/ ص٨٧.
اشتغل ابن سينا (٣٧٠ – ٤٢٨هـ/ ٩٨٠ – ١٠٣٧م) بالطب وبرع فيه منذ شبابه . ترك عدة مؤلفات في هذا الميدان ، ومن بينها " القانون " وهو موسوعة من خمسة كتب ضمّنها كل ما يتعلق بالطب ، ولم يترك بابا الا طرقه وأفاض فيه . والى جانب " القانون" كتب عدة رسائل في الطب مثل رسالة في الأدوية القلبية ، وأخرى في النبض ، وثالثة في القولنج ، وغير ذلك . وله أيضا أراجيز طبية ، منها " الأرجوزة في الطب " التي تبلغ ألف بيت اختصر فيها التعاليم الطبية . ولعل أشهر تآليفه على الإطلاق هو " القانون " الذي يشتمل على كل ما يحتاج اليه الأطباء ، فكان بذلك أهم مرجع في العصر الوسيط ، وأصبح يدرس في جامعات الغرب . وقد قام جيرار الكريموني بترجمة " القانون " في طليطلة الى اللغة اللاتينية . كذلك ترجمت له عدة رسائل " الأدوية القلبية " في القرن الثالث عشر و" الأرجوزة في الطب " . ويكفي أن جامعات أوروبا اتخذت " القانون " مرجعا أساسيا لتعليم الطب . وكانت جامعة بولونيا هي أول من اعترف به رسميا كمرجع في تدريس الطب في القرن الثالث عشر ، حيث أنشئت في تلك الجامعة عام ١٢٦٠م كلية للعلوم ، ومنذ ذلك الحين بدأ " القانون السينوي " يغزو جامعات أوروبا ومدارسها حتى أصبح يمثل نصف المقررات الطبية في سائر الجامعات الأوروبية في أواخر القرن الخامس عشر . وظلت موسوعة " القانون " هذه تتربع على عرش الجامعات حتى أوائل القرن السابع عشر عند مولد الطب القائم على المناهج العلمية الحديثة . انظر (ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٤٣٧ – ٤٥٩ ، جوزيف نسيم ، نشأة الجامعات في العصور الوسطى ٣١ – ٣٣، ٨٣ – ٨٤ ، ٣٠٣ – ٣٠٤ ، عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ٢٨٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٣/١٩٨٠م ؛ خليل السامرائي ، دراسات في تأريخ الفكر العربي٣٩٩ ، مطابع جامعة الموصل ، العراق ، ط١/١٩٨٣م) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ثم يوجز الجدوى من تعلم العربية فيقول : ((. . . بوصفها لغة عالمية ؛ فإنها تفيد في التعامل مع المغاربة ، والمصريين ، والسوريين ، والفرس ، والترك ، والمغول ، والهندوك ، وجميع أعداء العقيدة المسيحية بسيف الكلمة المقدس ، ودحض حججهم بمعتقداتهم نفسها ، والطواف حول العالم بلغة واحدة فقط))[١].

وهكذا فقد بدأ تعلّم اللغة العربية في أوربا بهدف لاهوتي واضح ، يقصد من ورائه تنصير الشعوب الإسلامية والسيطرة عليها .

وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي بدأ الأتراك في حكم آسيا الصغرى ، وسقطت القسطنطينية في أيديهم عام ١٤٥٣م ، وأسّس الأتراك دولة فتية طموحة، أخذت تهدد أوربا بكل قوة[٢] .

وفي الوقت الذي بدأ فيه العثمانيون يتوجهون جنوبا نحو دولة المماليك التي كانت تحكم مصر والجزيرة العربية وبلاد الشام ، ونحو الصفوين في إيران ، نجد اندفاعا أوربياً مقابلاً له في أقصى الحدود الإسلامية الغربية ، حيث استطاع الأسبان أن يقضوا على الوجود الإسلامي في الأندلس ، واستولوا على بعض المدن الساحلية في المغرب .

وبدأ البرتغاليون في اختراق المجال البحري ، واكتشفوا رأس الرجاء الصالح[٣] الموصل إلى الهند وجزر التوابل والبهارات عام ١٤٩٨م ، ومن المعروف أن الدافع الأساس لحركة الكشوف الجغرافية لم يكن اقتصاديا بحتا ، وإنما كان دافعا دينيا ، يهدفون من ورائه تحطيم سيطرة المسلمين على طرق التجارة مع الشرق ، والعمل على كسب أراض وميادين جديدة للمسيحية[٤] ، وبعدما أصبحت الدولة العثمانية قوة مرهوبة الجانب بعثت فرنسا إليها أول سفير فوق العادة ، فأبرم معاهدة الامتيازات الأجنبية مع السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣٥م .

---

(١) يوهان فوك : ص٤٩ ؛ عبد الرحمن بدوي ، موسوعة المستشرقين / ص٨٧ .

(٢) نور الدين حاطوم ، تاريخ عصر النهضة الأوربية ، ٣٣٥ – ٣٤٥ ، دار الفكر ، بيروت ط١/١٣٨٧هـ .

(٣) تقع في أقصى أفريقيا الجنوبية .

(٤) انظر بتوسع : سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا في العصور الوسطى ١/ ٥٧٠ -٥٧٣ ؛ الشناوي ، أوربا في مطلع العصور الحديثة (١٠/ ١١٠ -١٥٣) / مكتبة الأنجلو المصرية / ط٢/١٩٧٧م نور الدين حاطوم : تاريخ عصر النهضة الأوربية / ١٤٤ -١٥٧.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ثم أخذت دول أوربا بتقليد فرنسا ، فتعدّدت سفاراتها إلى غيرها من بلدان الشرق ، وأخذت صحف فرنسا تذيع أخبار سفرائها لدى الباب العالي ، وأسرار قصوره ومغامرات حسانه ، فأغرت برحلات جديدة إلى الشرق[١] .

أما السفراء وملحقوهم الذي تخرّجوا من مدارس اللغات الشرقية ، وبُعثوا إلى الشرق وأقاموا فيه ، فقد قاموا بجهد في جمع المخطوطات ، وإنشاء المطابع لنشر مؤلفات الشرق ، ومنهم أندره دي ريير قنصل فرنسا في مصر الذي ترجم القرآن الكريم عام ١٦٤٧م ، ثم تلتها ترجمة سافاري ١٧٨٢م[٢] .

وتبادلت أوربا سفراءها في الشرق بسفراء في عواصمها ، فاستقبلت باريس سفراء تركيا (١٦٦٩م) وسيام (١٦٨٤م) وفارس (١٧١٥م) ، ثم سفير الهند بعد سنوات[٣] ، لقد كان بعض سفراء الشرق فخورا بنفسه مبالغا في الترف ساعيا إلى الجاه ، فَيَقْدم إلى عواصم أوربا بالأزياء الناضرة والحلي وضروب الطيب ، فيزدحم الناس في الشوارع ينظرون إليه ، ويحبون مجالسته ومفاكهته ، لما هو عليه من ذلك المنظر المهيب ، وذاعت أخبار سفراء الشرق إلى بلاط فرنسا وأسرارهم ومغامراتهم ، فعمد الأدباء إلى تسجيلها والنسج حولها والنظم فيها ، وأقبل الأدباء على الشرق بأديانه وأبطاله وقصصه ، فجعلوها غذاءً للمسرح الفرنسي قرنا كاملا ، إضافة إلى ترجمة كثير من الكتب العربية وطباعتها[٤] .ثم كانت حملة نابليون على مصر (١٧٩٨ -١٨٠١م) وكان لها الأثر الأكبر في تعرّف الغرب على الشرق ، وكانت هذه الحملة مجهزة ببعثة علمية ، قوامها علماء أثريون ، ومهندسون ، وأطباء ، ومؤرخون ، ومستشرقون ، ومترجمون لبنانيون ومصريون وسوريون[٥] .

---

(١) نجيب العقيقي : المستشرقون (١٢٩/١، ١٣٦) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١٩٨٠/٤م .

(٢) نجيب العقيقي : المستشرقون ١/ ١٢٩ ؛ يوهان فوك / ص٦٣ ، روبن بدول : ٢١ ؛ نذير حمدان / ص١٤٨، مكتبة الصحوة ، الطائف ، ط ١٤٠٨/١هـ .

(٣) المستشرقون (١٣٠/١) .

(٤) المصدر السابق (١٣٠/١) .

(٥) المصدر السابق (١٣٦/١) ، جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ٢٤٨، ترجمة : قدري قلعجي ، منشورات الفاخرية ودار الكتاب العربي ، بيروت ، الرياض ، ط١٣٨٣/١هـ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

دوافع الرحالة الغربيين إلى الجزيرة العربية:

لقد كان واضحا أن اهتمام أوروبا بالشرق الإسلامي كان جزءا من الهدف التنصيري والاستعماري لبلاد المسلمين.

ومن خلال تصفّح مبدئي لرحلات الغربيين في الجزيرة العربية ، نجد أن أولئك الرحالة قاموا بما قاموا به وفق نوايا وأهداف محددة سلفا ، فكانت الأهداف التنصيرية والاستعمارية - بما تخفيه من جوانب سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية وعلمية - هي المحرك لتلك الرحالات ، لقد تميّز القرن السابع عشر بالصراع بين البرتغاليين - الذين سبقوا غيرهم بالوصول إلى الشرق - وشركتي الهند الهولندية والبريطانية ، وأخذت كل من الشركتين تسعى لإقامة علاقات تجارية مع حكام اليمن والجنوب العربي ، خاصة وأن البن قد عُرف، وأصبحت القهوة مشروبا شهيرا في أوربا في ذلك الحين ، وأصبحت جزيرة العرب في نظر الأوربيين بلد البن قبل أي شيء آخر[١]، ونظرا لأهمية اليمن التجارية فقد أقام بعض التجار الأوربيين مراكز تجارية مختلفة على السواحل اليمنية والخليجية ، ونظرا لازدياد هذا النشاط الأوربي الاستعماري المتلاحق باليمن ، فقد حاول الهولنديون عن طريق بعثتهم التي يرأسها جون جورديان إقناع الباشا التركي في صنعاء بتخفيض الضرائب الجمركية ، كما كتب وصفاً لما رآه في رحلته إلى بلاد اليمن [٢].، ثم وصل القبطان الهولندي (بيترفان دي بروك Peter Van De Broecke) إلى عدن بعد سنيتن أو ثلاث من وصول جورديان، وكان هذا القبطان الهولندي رجلا نشيطا شديد الملاحظة، وقد أرسله الحاكم العام الهولندي في الهند إلى عدن فكتب مشاهداته في بلاد اليمن[٣].

(١) انظر بحثا ممتعا عن القهوة وشجرة البن في رحلة : دي لاروك،رحلة الى العربية السعيدة ١٥٥ – ٢١٨، إصدار المجمع الثقافي / أبو ظبي ، ط ١/١٤٢٠هـ .

(٢) بلاد العرب القاصية ٧٠-٧١ .

(٣) المصدر السابق / ص٧١ .

وفي عام ١٦١٦م رجع دي بروك إلى اليمن ، وأنشأ مركزا تجاريا في مخا ، وأقام علاقات حسنة مع السلطان هناك ، وقد دوّن تلك المشاهدات التي رآها في بلاد اليمن[١].

وأرسلت الشركة البريطانية الكابتن ألكسندر شارب (Alexandre Charpe) عام ١٦٠٩م إلى عدن والبحر الأحمر ، ثم أرسلت من بعده هنري ميدلتون (Henrry Middelton) فزار عدن ومخا ، ووقع في الأسر ، ثم أفرج عنه ، وكتب مشاهداته عن بلاد اليمن[٢] .

ولم تقف فرنسا بمعزل عن تجارة البن بعدما شاع استعمال القهوة فيها ، فتغنى شعراؤها بذلك المشروب الوافد من الشرق ، فأسس تجار (سات مالو) شركة لاستراد البن من اليمن ، فأرسلوا لهذا الغرض بعثتين في مطلع القرن الثاني عشر ١٧١١ -١٧١٢م ، وكان أهمها الرحلة الثانية التي كان على رأسها الجراحِ باربييه (Barbier) ، والضابط (دي لا روك دبير) اللذين قدما تقريرهما إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، وقد سجل قصة الرحلتين لارون (Larone) ونشرت في كتاب[٣].

وفي القرن الثامن عشر زاد رخاء أوربا لما تدفّقت عليها خيرات المناطق التي استعمروها ، ونشطت حركة الاستشراق في كثير من الدول الأوروبية ، وتوّجت العناية بالعرب وتراثهم ، ببعثة نيبور (Carsten Niebur) ١٧٦١ -١٧٦٤م ورفاقه الى الجزيرة العربية ، وكان الذي اقترحها هو يوهان ديفيد ميخائيلس أستاذ الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس ، وفقه اللغة العبرية بجامعة جوتنجن (COTTINGEN) وقد موّل البعثة ملك الدنمرك فريدريك الخامس ، وكان من ضمن أهداف تلك البلاد التعرف على البلدان التي وردت في (التوراة) خاصة

---

(١) المصدر نفسه / ص٧١-٧٣ ، محمد محمود الصياد ، الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية / بحث منشور ضمن كتاب مصادر تاريخ الجزيرة (٤٤١/٢) .

(٢) محمد محمود الصياد ، مصدر سابق (٤٤١/٢) .

(٣) المصدر السابق (٤٤١/٢) ، المسترقون (٢٣٩/٣) . وقد نشر المجمع الثقافي في أبو ظبي هذه الرحلة تحت عنوان : رحلة إلى العربية السعيدة ، ترجمة : صالح محمد علي ط ١٤٢٠/١هـ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بجزيرة العرب ، إضافة إلى معرفة خروج بني إسرائيل من مصر وهروبهم إلى فلسطين ، وزوّدت البعثة بعدة أسئلة تتعلق بالتوراة[١] .

لقد أدى ضعف الدولة العثمانية إلى تحرك الدول الاستعمارية الأوروبية للحصول على الامتيازات من الرجل المريض ، بل إن الدولة الاستعمارية الكبرى في ذلك الحين (بريطانيا) - مثلا - عملت على حماية الدولة العثمانية من السقوط مدة من الزمن ، وذلك من أجل درء أطماع الدول الأوربية والحيلولة دون منافستها في المنطقة[٢].

ونظرا لتغير الأوضاع في تركة الدولة العثمانية ، حيث قامت الدعوة السلفية في نجد (١١٥٧هـ/١٧٤٤م) ، والحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١م) ، كل ذلك دفع بريطانيا وغيرها من الدولة الأوروبية إلى الاهتمام بمنطقتي الحجاز ونجد ، ولذا توافد عدد من الرحالة الأوروبيين إلى الجزيرة العربية ، لرصد أوضاع الجزيرة السياسية ، والاجتماعية ، والدينية ، والاقتصادية ، وكان الإسباني (دومنجو باديا لابلخ Domingo Badiay Leblich) هو أول رحالة غربي يزور الأراضي المقدسة في الحجاز عام ١٨٠٧م ، ويكتب تقريرا مفصلا عن أحوال الحجاز ، ومشاهداته للسعوديين (الدولة السعودية الأولى) الذين كانوا يسيطرون على مكة في ذلك الحين ، وكان دومنجو قد تنكّر تحت اسم علي بك العباسي ، ومن المرجّح أنه كان يعمل لصالح نابليون الذي قابله عدة مرات ، وكان يعامل معاملة لائقة محترمة من قبل محمد علي باشا حاكم مصر ، وشريف مكة الشريف غالب[٣].

---

(١) Reisebeschreibung nach Arabien (Copennhagen 1774-8) T and, raveels Through Arabia, M.Niebuhr,2vols (London 1792).

(٢) لوتروب ستودارد: حاضر العالم الإسلامي تعليقات شكيب أرسلان (٢١/١) / دار الفكر/ بيروت / ١٢٩٣هـ١٦٧٣م. بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية في القرن التاسع عشر ، القسم الأول ١٣٤ ، ترجمة : جلال يحي المكتبة العصرية ، الاسكندرية ، ط ١/ ١٩٨٠م ، محمد البحراوي ، حركة الاصلاح العثماني ٢٦٤ ، مطابع المختار ، مصر ، ط١/١٣٩٨هـ ، عايض خزام ، حروب محمد علي في الشام ٤١٤ ، مطبوعات مركز بحوث الدراسات الاسلامية / جامعة أم القرى ط ١/١٤١٤هـ .

(٣) روبن بدول : ٣٢-٣٣، بلاد العرب القاصية : ٩٨-١٠٦ ، العفيفي : ٣٤٤/٣ . (ولد دمنجو في برشلونة عام ١٧٦٦م ، ودرس العربية في مدينة بلنسية ، بدأ رحلته عام ١٨٠٦م ، وتوفي مسموما – كما يقال – في دمشق عام ١٨١٨م ، وهو يحاول القيام برحلته الثانية ، وقد اتهم الفرنسيون المخابرات البريطانية بقتله) . (روبن بدول ٣٤ ؛ الريحاني : تاريخ نجد وملحقاته : ٧٨ ، دار الجيل ، بيروت ط ١٩٨٨/٦م ؛ جمال زكريا : الدوافع السياسية لرحلات الأوربيين ، بحث منشور ضمن كتاب مصادر تاريخ الجزيرة ٩/٢-١١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

حتى روسيا كان لها اطماعها أيضا في المنطقة ، حيث أرسل القيصر الروسي الرحالة أولريخ جاسبر سيتزن Hlrich Jasper Ceetzen الذي قام برحلته إلى الجزيرة العربية واستطاع أن يدخل مكة ؛ ليحصل على لقب حاج ، وبعدها ذهب إلى اليمن ، وقتل هناك في أواخر عام ١٨١١م[١] .

وفي عام ١٨١٤م قام الرحالة السويسري (جوهان لودفج بوركهارت Johann Lodvig Burkhardt) بدعم من الجمعية الأفريقية في لندن برحلته إلى الجزيرة العربية عام ١٨١٤م متنقلا بين المدينة ومكة وجدة والطائف وينبع ، وقابل محمد علي باشا في الطائف ، حيث كانت جيوشه تحارب الدولة السعودية الأولى[٢] .

وقد دوّن (بوركهارت) بشكل دقيق ملحوظاته عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه ، كما أعطى وصفا دقيقا لمشاهداته في الحجاز[٣] .

ثم كانت رحلة الفنلندي جورج أوغست والين (George August Wallin) وقد كلفته جامعة هلسنكي بالسفر إلى المنطقة الجنوبية من نجد ، بهدف الحصول على معلومات عن طبيعة الوهابيين ، وأهدافهم هناك .

---

(١) روبن بدول ١٠٨،بلاد العرب القاصية ١٠٧، يوهان فوك ، مصدر سابق ١٦٧.
(ولد سيتزن عام ١٧٦٧م في روسيا ، وهو لغوي بارع ، وله حظ وافر من العلوم ، دُس له السم في بلاد اليمن بعد أن شكوا في أمره ، وظنوا أنه يحمل مالا في خزائنه ، ولم يعثروا بعد فتح حقائبه إلا على بعض النباتات المجففة ، وأكياسا تحوي بعض البذور والحشرات المحفوظة ، وبعض الأدوات الفلكية والصور والخرائط) .
(روبن بدول ١٠٨ ، بلاد العرب القاصية ١٠٧ ، يوهان فوك ١٦٧) .

(٢) انظر بالتفصيل (بوركهارت ، رحلات في شبه جزيرة العرب . ترجمة : عبدالعزيز الهلابي ، عبدالرحمن الشيخ . مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١/١٤١٣هـ .

(٣) ولد بوركهارت في لوزان بسويسرا عام ١٧٨٤م ، ثم درس في ألمانيا في جامعة جوتجن . ولما رفض الخدمة العسكرية تحت راية نابليون فقد سافر إلى انجلترا عام ١٨٠٦م ، ثم عرض خدماته على الجمعية الجغرافية البريطانية ، فوافقت على أن يعمل لحسابها مقابل أجر يومي قدره جنيه واحد . ولكي يعد نفسه لهذه المهمة فقد درس اللغة العربية في جامعة كيمبردج ، ثم بدأ في رحلته إلى بلاد الشام عام ١٨٠٩م ، ثم الى مصر وبلاد النوبة ثم توج رحلاته تلك بالوصول إلى الحجاز ، ثم رجع إلى مصر ، وأصيب بالطاعون ووافاه أجله في القاهرة عام ١٨١٧م .
جاءت نتائج رحلات بوركهارت في أربع مجلدات هي : رحلات في بلاد الشام – رحلات في بلاد النوبة – ملاحظات عن البدو والوهابيين – رحلات في شبه جزيرة العرب - . حققت هذه الأعمال لبوركهارت شهرة واسعة بسبب دقته وحياديته ، وغزارة المعلومات التي يوردها وتنوعها في الانثروبولوجيا والآثار والجغرافيا والاقتصاد .
ونظرا لإنصافه فقد كان صادق الوصف للمسلمين ، كما كان يحمل مشاعر وعواطف إيجابية حيال معتقدات المسلمين ، ولما أحس بدنو أجله أوصى أن يدفن في مقابر المسلمين . (بلاد العرب القاصية ١٠٩، المستشرقون ٥٢/٢ ، الزركلي ، الأعلام ٣٤٩/٩ ، ط١٣٨٩/٣هـ ، مقدمة كتاب بوركهارت ، رحلات في شبه جزيرة العرب) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

انطلق والين الذي تسمى بالشيخ عبد الولي عام ١٨٤٥م في رحلته من القاهرة إلى العقبة ثم إلى عمان ، ومنها عبر إلى المنطقة حتى وصل إلى الجوف ، ثم توجه إلى حائل وحاول الوصول إلى القصيم والرياض ، ولكن الظروف المالية حالت دون إتمام مهمته ، ثم عاد إلى الجزيرة العربية فزار سويلم على البحر الأحمر ، وتبوك ، وتيماء ثم حائل ، ولم يصل إلى القصيم والرياض بسبب انتشار الشائعات أنه مسيحي[١] .

وفي سنة ١٨٥٢ قام الضابط الإنجليزي ريشارد بيرتون (Burton sir Richard) برحلة إلى بلاد الحجاز وسوف نتحدث عنها في هذا البحث بالتفصيل ، ثم جاءت رحلة شارل ديدييه الى أرض الحجاز[٢] ،خدمة لأهداف استخبارية فرنسية .

وتحت شعار الدعوة إلى المسيحية والأهداف السياسية الاستعمارية نجد رحلة وليام جيفود بلغريف (William Gifford Palgrave) الذي ولد لأب يهودي - وكان والده قد تخلى عن ديانته اليهودية إلى المسيحية البروتستانتية - وكان هو المسئول الأول عن البعثات التنصيرية التي تنطلق من لبنان إلى أنحاء بلاد الشام .

واستطاع أن يقنع نابليون بفكرة تحويل سكان شمال الجزيرة إلى المسيحية ، وحصل على معونة تبلغ ستة آلاف فرنك لتحقيق غرضه ، ووصل إلى القاهرة ثم إلى معان عام ١٨٦٢م ، ومن معان بدأ عبور الجزيرة العربية ، فزار الجوف ، وبريدة ، والرياض ، والهفوف ، والبحرين ، وقطر ، والكويت ، واستمر في رحلته ما يقارب العام متخفيا تحت اسم سليم أبو محمد إلياس وبعد ذلك قدّم تقريره لنابليون الثالث ، والذي تضمن خطة لتوحيد مصر وسوريا

---

(١) بلاد العرب القاصية ١٣١ – ١٣٥ ، المستشرقون ٢٤٤/٣ – ٢٤٥ ، عوض البادي ، الرحالة الأوربيون في شمال الجزيرة العربية ١٧ – ١٩ ، دار بلاد العرب ، الرياض ، ط١/١٤١٨هـ .

(ولد والين عام ١٨١١م في جزائر آلاند غربي فنلندة ،وتعلم في جامعتها ، ثم رحل إلى روسيا ، وأخذ العربية في معهد الاستشراق على يد الشيخ : محمد عياد الطنطاوي ، وعيّن بعد رحلاته أستاذاً للغة العربية في جامعة هلسنكي (فنلندة) ، وأهم مؤلفاته يوميات في الشرق طبعت بعد وفاته في خمسة مجلدات ، وكتاب : أهم الفروق بين لهجات العرب المتأخرين والمتقدمين) . الزركلي ، الأعلام ١٤٤/٢، المستشرقون ٢٤٤/٣ – ٢٤٥ .

(٢) رحلة إلى الحجاز ١٨٥٤م ، ترجمة : محمد خير البقاعي ، دار الفيصل ، الرياض ط ١٤٢٢/١هـ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ووضعهما تحت الحماية الفرنسية[١] ، ومما يؤكد لنا الاهتمام الفرنسي بشؤون الجزيرة العربية أن الإمبراطور نابليون الثالث موّل رحلة (كارل جورماني Carlo Guarmani) الذي قام بها في عام ١٨٦٣م إلى أمير شمر (ابن رشيد) ، وكان هدف الرحلة الظاهري شراء الخيول العربية الأصيلة ، وقام برحلته ، وتمّ له ما أراد ، ونشر جوارماني رحلته في كتاب بعنوان ((شمال نجد رحلة من القدس إلى عنيزة في القصيم)) ونشرها عام ١٨٦٦م ، وكتابه يحوي معلومات مهمة وكثيرة عن جبل شمر وأسرار آل الرشيد[٢] .، لقد أثارت رحلات بالجريف ، وجوارماني ، وغيرهم الذين كانوا يعملون لحساب الإمبراطور نابليون الثالث ، روح التنافس بين إنجلترا وفرنسا على اكتساب النفوذ في الشرق ، لذا أخذت بريطانيا تهتم بمصالحها وتحاول كسب نفوذ جديد .

فكانت رحلة الكولونيل (لويس بيل Lewis Pelly) إلى نجد حيث قابل الإمام فيصل بن تركي عام ١٨٦٥م من أجل عقد صداقة بين الدولة السعودية الثانية وبريطانيا ، وقد دوّن بيلي رحلته تلك ، وأرفق معها خرائط ذات فائدة كبيرة[٣] .

---

(١) بلاد العرب القاصية ١٦٥ – ١٧٨ ، روبن بدول ٦٨ – ٧٦ ، المستشرقون ٦١/٢ ، عوض البادي ٥٦ – ٥٨، جاكلين بيرين ، اكتشاف جزيرة العرب ٢٩٨ – ٣٢٢ ، ترجمة قدري قلعجي ، منشورات الفاخرية ودار الكتاب العربي ، بيروت ، الرياض ، ط ١٣٨٣/١هـ (ولد بلغريف عام ١٨٢٦م ، وقرر أن يكون راهبا ، فانضم الى جماعة يسوع ، انتقل الى لبنان وبدأ بالتنصير بين العرب ، ولم تنته سنة ١٨٥٧م حتى أصبح المسئول الأول عن البعثات التنصيرية التي تنطلق من لبنان ومسؤولا أيضا عن المدارس التي أسستها جماعته في لبنان ، ثم غادر لبنان بعد اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٨٦٠م ، وبعد اتمام رحلاته ، عُيّن قنصلا لبريطانيا شرق الأناضول من عام ١٨٦٦حتى عام ١٨٧٣ م ، ثم نقل بعد ذلك الى جزر الهند الغربية ، ثم الى الفلبين ليشغل نفس المنصب حتى عام ١٨٧٨م ، ثم أخيرا نقل الى "مونتفيديو" كوزير بريطاني فيها ، حيث توفي هناك عام ١٨٨٨م ، ونقل جثمانه الى لندن . ويعد كتابه " رحلة الى وسط وشرق الجزيرة العربية " الذي نشر عام ١٨٦٥م من أمهات أدب الرحلات . أنظر : مقدمة كتاب وليم جيفورد بلغريف Journeythroigh Central And eastern Macmillan Anbco . Lonndon Ayear,s) .

(٢) Carlo Guarmani. Northern Nejd. A Journey From Jerusalem To Anaiza. Trad. Lady Capel – Cure. (Londoon. 1938) .See also "Itineraire de Jerusalm au Nejd" . Bulletin de Geographie (1865). Pp. 241 – 291

(ولد جوارماني (غوارماني) في ايطاليا عام ١٨٢٨م ، غادر والده إلى بيروت ، وعمل كارلو بوظيفة ممثل للبريد الفرنسي في القدس ، وبدأ تركيز كرلو على بيع الخيول العربية وشرائها ، وعاد غوارماني بعائلته ، واستقر في جنوب ايطاليا حيث أصبح أحد أكبر تجار المدينة ، وتوفي عام ١٨٨٤م ، وقد قام غوارماني برحلته تحت اسم : خليل أغا ، وتظاهر بالإسلام) البادي ، مصدر سابق ٩٤ ، بلاد العرب القاصية ١٨١ – ١٨٢ .

(٣) انظر : لويس بيلي ، رحلة إلى الرياض ، ترجمة : عبدالرحمن الشيخ ، عويضة الجهني ، نشر : جامعة الملك سعود ، ط١٤١١/١هـ (ولد لويس بيلي عام ١٨٢٥، والتحق بالقوات البريطانية وكان ممثل بريطاني في الخليج ، وقام برحلته الى الرياض لمقابلة الامام فيصل بن تركي عام ١٨٦٠م ، وكان هدف الزيارة الحصول على صداقة الامام فيصل ، وقد وصف أحوال بلدة الرياض ، كما قدّم وصفا مفصّلا للامام فيصل ، ونتيجة لقوة تدين الامام فيصل ومعاونيه ، ونتيجة للشكوك حول هذه المهمة فقد قام بيلي بمغادرة الرياض على وجه السرعة ، وبعد ذلك حصل على لقب سير ثم أصبح عضوا في مجلس العموم البريطاني ، وأصبح مقيما سياسيا في الخليج من عام ١٨٦٢ – ١٨٧٣م ، ودعاه ملك بلجيكا ليكون حاكما اداريا لمستعمرة الكونغو (روبن بدول ، مصدر سابق ١٣٢ – ١٣٤، بلاد العرب القاصية ١٨٢ – ١٨٣، جمال زكريا قاسم : الدوافع السياسية لرحلات الغربيين إلى نجد والحجاز / بحث منشور ضمن كتاب مصادر تاريخ الجزيرة العربية (١٩/١ -٢١) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ومن الرحالة الذين وفدوا إلى شمال الجزيرة العربية ووسطها الرحالة (تشارلز دوتي Charles Doughty) وقام برحلته عام ١٨٧٦م إلى وسط الجزيرة حتى وصل إلى الحجر ومدائن صالح وتيماء ، وتجاوزها إلى خيبر وحائل والقصيم ، ثم عاد إلى إنجلترا عام ١٨٧٦م ، ويعد كتابه (رحلات إلى الصحراء العربية Travels in Arabia Deserta) من أفضل كتب أدب الرحلات لاحتوائه على مواد علمية مهمة ، وكان دوتي مظهرا لديانته النصرانية ، وكان هدفه الأول هو البحث عن جذور المسيحية في المشرق العربي الإسلامي ، وكان يرجع كل ما شاهده إلى أصول نصرانية ، وإلى الكتاب المقدس ، وكتابه يطفح بالكره والبغض والازدراء لمن قابلهم من العرب أثناء رحلته[١].

وفي خضم التنافس بين فرنسا وبريطانيا ، فقد كلفت وزارة التعليم الفرنسية تشارلز هوبر (Tcharles Hober) باكتشاف نجد ؛ فقام برحلته الأولى عام ١٨٧٨م ، واستمر أربعة أعوام واستطاع خلالها اكتشاف حجر تيماء[٢]، وفي عام ١٨٨٢م سافر في رحلته الثانية تحت رعاية الجمعية الجغرافية

---

(١) انظر مقدمة كتابه : Travels in Arabia Deserta The Medici Society,London,Boston. Charles M. Doughty Volume 1,1921، (ولد تشارلز دوتي في مقاطعة سفولك بانجلترا عام ١٨٤٣م ، التحق بجامعة كمبردج ودرس الجيولوجيا ، بدأ رحلاته في أسبانيا ، وايطاليا ، ثم إلى اليونان ، ومصر حيث وصل إلى القاهرة في بداية عام ١٨٧٥م ، ثم عبر صحراء سيناء حتى وصل الى مدينة البتراء، وهناك سمع عن مدائن صالح ، وانظم إلى قافلة الحج الشامي المتجهة إلى مكة ، وقد تنكّر في زي رجل سوري ، وتسمى في رحلته باسم خليل ، وفي عام ١٦٧٦م وصل إلى مدائن صالح ، وبدأ في تدوين النقوش هناك ، ثم تجوّل مع البدو ووصل إلى تيماء، ثم التحق بقبيلة بلي لأربعة أشهر ، ثم ذهب إلى حائل ، وقد تعرض للاهانة بسبب إظهاره لديانته المسيحية ، ثم ذهب إلى خيبر وكاد أن يموت في الطريق ، وفي خيبر تعرض للضرب على يد الحاكم ، ثم أُرجع إلى حائل ، وطلب منه هناك الدخول في الإسلام ولكنه رفض بشدّة ، وكاد أحد المتعصبين أن يجري له عملية ختان بالقوة ، ثم وصل إلى بريدة وعنيزة وكاد أن يقتل بسبب إظهاره لديانته ، ثم غادر عنيزة عام ١٨٧٨م ، وتوجه إلى الحجاز ووصل إلى شريف مكة في الطائف ، ثم وصل إلى القنصلية البريطانية في جدة في أغسطس من عام ١٨٧٨م ، لم يصادف أحد من الرحالة أن تعرّض للذل والهوان وقساوة الحياة كما حدث لدوتي ، لقد اختصرت عبارته التالية كل معاناته وآلامه : (لقد عشت في الجزيرة العربية يوما سعيدا واحدا ، أما بقية الأيام فكانت كلها سيئة بسبب تعصب الناس) بدول ٧٧ – ٨٩ ، بلاد العرب القاصية ١٨٣-١٩٣ ، يوهان فوك ٢٠٩ ، المستشرقون ٧١ .

(٢) يحوي حجر تيماء - وهو محفوظ الآن في اللوفر بباريس - نقشا من أعظم النقوش التي كُشف عنها حتى حتى الآن ، يسبب قيمته الأثرية ، ويرجع تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو مكتوب باللغة الآرامية ، وفيه أن أحد الكهنة استقدم إلها جديدا إلى تيماء يدعى صلم هجم ، فأنشأ لهيكل الإله المعبود وقفا ، وعيّن له كهانة وراثية ، ولقد مثّل الإله في زي الأشوريين ، وظهر في أسفل الرسم رسم الكاهن الذي شيّد هذا النصب (حمد الجاسر، في شمال الجزيرة العربية ٣٥٥ ، دار اليمامة ، الرياض ، ط ١٤٠١/١هـ) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الفرنسية ، فزار الجوف ، وحائل ، وتيماء ، وحصل على حجر تيماء وعاد إلى جدة ، ثم غادر هوبر جدة عائدا إلى حائل ، ولكنه قُتل في طريقه يوم ٢٩يوليو ١٨٨٤م على يد أدلائه الذين اختارهم لقيادته[١] .

ومن أولئك الذين جاؤوا إلى بلاد الحجاز بهدف دراسة التوجه الديني لدى المسلمين ، والتجسس على نشاطات المسلمين في مكة ، الرحّالة الهولندي سنوك هور جورنيه (Hurgronje) والذي يعد من كبار المستشرقين ، فقد أقام سنوك في مكة أكثر من ستة أشهر من عام ١٨٨٥م ، وذلك لدراسة أوضاع المسلمين في مكة وخاصة الجاويين ، ومدى تأثير إقامتهم في مكة على سلوكهم العام ، وكان ذلك في فترة استعمار هولندا لأند ونسيا .

وكان سنوك يعمل من عام ١٨٨٢م في المعهد الذي يعد الموظفين للعمل في الخدمة الاستعمارية الهولندية[٢] .

ومن المهم أن نعرف أن أبحاث سنوك هور جرونيه وأفكاره وآراؤه في محاضراته المنشورة ، تقطر سمّا زعافا ضد الإسلام والمسلمين[٣].

---

(١) المستشرقون (٢٨٨/١) ، عوض البادي ، مصدر سابق ١٤٣ – ١٤٤ . (ولد هوبر عام ١٨٣٧م في مقاطعة الألزاس الفرنسية ، وتعلّم في سورية اللغة العربية عام ١٨٧٤م . استطاع كتابة رحلته الأولى تحت عنوان " رحلة في وسط الجزيرة العربية ، حماد،شمّر ، القصيم ، الحجاز " ونشره عام ١٨٨٤م ،أما رحلته الثانية فهي عبارة عن مذكرات دون تفصيل (البادي ، مصدر سابق ١٤٤ – ١٤٣) .

(٢) يوهان فوك ٢٠٨ – ٢٠٩ ،٢٤٩ – ٢٥٠ ، المستشرقون ٣٤٦ ، روبن بدول ١١٦ – ١١٧ (ولد هور جرونية في هولندا عام ١٨٥٧م ، ثم التحق بجامعة ليدن لدراسة اللاهوت عام ١٨٧٤م ، وبد عام ١٨٧٨م كرّس نفسه لدراسة اللغات والآداب السامية ، ولقد كان موضوع رسالته للدكتوراه في عام ١٨٨٠م (الحج عند المسلمين وأهميته في الدين الإسلامي) ، وفي عام ١٨٨٢م عُيّن محاضرا في الدراسات الإسلامية في كلية تدريب الموظفين لجزر الهند الشرقية التابعة لجامعة ليدن ، وفي عام ١٨٨٤م حصل على إجازة دراسية للسفر إلى الجزيرة العربية ، ليتعرّف من خلالها على حياة المسلمين ، وحقيقة الدين الإسلامي ، وبالفعل فقد استطاع أن يصل الى مكة ، تحت اسم مستعار (عبدالغفار) ، وبعد صدور كتابه " صفحات من تاريخ مكة المكرمة " الذي نشره عام ١٨٨٨ – ١٨٨٩م ، ذاعت شهرته ، ثم عُيّن في عام ١٨٨٩م مستشارا للشؤون الشرقية والإسلامية في جزائر الهند الشرقية ، وانتقل إلى جاوة وبقي فيها سبع عشرة سنة ، وبعد إحالة دي غوية الى التقاعد في عام ١٩٠٦م عُيّن أستاذا للدراسات العربية في جامعة ليدن ، وقد بقي في هذا المنصب حتى أحيل إلى التقاعد عام ١٩٢٧م وكان متضلعا في معرفة الفقه الإسلامي ، وذلك تبعا لاستاذه جولد تسيهر ، وتوفي عام ١٩٣٦م) .يوهان فوك ٢٠٨ - ٢٠٩ ، نذير حمدان : مستشرقون ٣٣ . ومقدمة " كتاب صفحات من تاريخ مكة " ترجمة علي عودة الشيخ ، تعليق محمد السرياني ، و معراج مرزا . دارة الملك عبد العزيز/ ١٤١٩هـ .

(٣) تعليقات شكيب أرسلان على حاضر العالم الإسلامي لاستوارد (٣٣٨/١-٣٤٣) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وحتى روسيا عادت من جديد - بعد إرسالها الرحالة سيتزن - إلى إرسال الرحالة إلى الجزيرة العربية فقام القيصر الروسي بإرسال الجاسوس (البارون إدوارد نولده Baron Eduatd Nolde)، وكان هذا الضابط قد قام برحلة إلى نجد ، مرورا بوادي السرحان ، فالجوف ، فحائل عام ١٣١٠هـ/١٨٩٣م ، وكان الهدف من رحلته خدمة المصالح الروسية[١] .

ومع بداية القرن العشرين كانت أوضاع القارة الأوربية مضطربة اضطرابا شديدا ، وخاصة بعد ما أخذت ألمانيا تبرز كقوة متنفذّة تريد السيطرة والتوسع ، الأمر الذي حدا ببريطانيا أن تأخذ على عاتقها القضاء على الدولة العثمانية ، بعدما لاحظت العلاقات المتنامية بين ألمانيا والدولة العثمانية ، فأرسلت عددا من ضباطها لدراسة المنطقة ومعرفة أسرار وتوجهات شيوخ القبائل ، فكانت هناك بعثة الضابط الإنجليزي (جيرالد ليتشمان Gerard Leachman) الذي تجوّل مع قبيلة عنزة في شمال الجزيرة العربية عام ١٩٠٩م ، ثم ذهب إلى ابن رشيد في حائل ، ومكث هناك بضعة أشهر ، ثم قام برحلة ثانية من دمشق إلى الرياض عبر الصحراء .

وقد استطاع جيرالد وحده بوسائل مختلفة إقناع القبائل بعدم شن الهجمات على الجناح الغربي للقوات البريطانية المتقدمة في العراق[٢] .

---

(١) البادي ، مصدر سابق ٢٤٩ – ٢٥٠ ، وبحث عن الأوضاع السياسية في نجد حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي في مذكرات : ادوارد نولده ، ترجمة عوض البادي ، عويضة الجهني ، مجلة الدرعية ، العدد الثاني /١٤١٩هـ .
(ولد البارون نولده عام ١٨٤٩م في بيت ألماني في جمهورية لاتفيا ، التي كانت تحت الحكم الروسي ، انضم الى الجيش الروسي ووصل الى رتبة ملازم ، وقاد سرية الفرسان حتى نهاية ١٨٧٦م ، اشترك في الحرب بين تشيلي وبيرو في أمريكا الجنوبية ، وفي عام ١٨٩٥م انتحر في لندن) . البادي ، الرحالة الأوربيون في شمال الجزيرة العربية ٢٤٩.

(٢) بلاد العرب القاصية ٢٢٣ – ٢٢٩ ، روبن بدول ١٤٢ -١٤٣ . (عُين ليتشمان مستشارا في حكومة العراق ، ونظرا لمعايشته الطويلة للبدو فقد كان متقنا للغة العربية ، إضافة إلى معرفته التامة بلهجاتهم ، وأحوالهم إلى الحد الذي جعله يلبس لباسهم ، ويركب مركبهم ، ويفتح مضافة مثلهم ، ويقضي ويفصل بشرعهم وقضائهم ، ولما اشتعلت الثورة على البريطانيين في العراق كان ليتشمان حاكما سياسيا في لواء الديلم ، وقد دعا إليه مرة الشيخ ضاري شيخ قبائل الزوبع الضاربة في نواحي الفلوجة والرمادي ولواء الدليم واحتد الحديث بينهما ، وهدد ليتشمن الشيخ ضاري تهديدا شديدا من أجل الثورة ، وحمى النقاش بينهما ، ووضع ليتشمن يده على مسدسه ، فبادره ابن الشيخ ضاري برصاصة اخترقت دماغه فخرّ صريعا . وكان ذلك في (١٢ / آب/١٩٢٠م) . الريحاني ، مصدر سابق ٢٠٥ – ٢٠٦ ، بلاد العرب القاصية ٢٢٣ – ٢٢٩ ، وبن بدول ، مصدر سابق ١٤٢ – ١٤٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ثم نجد رحلة الكابتن (شكسبير Shakespear) المندوب السياسي البريطاني في الكويت ، فقد زار شكسبير الرياض بوصفها جزءا من رحلته التي قطع فيها الجزيرة العربية من الساحل إلى الساحل ، حيث قام برحلته عام ١٩١٤م ، وتجوّل في غالبية المنطقة الوسطى ، والحجاز ، وحائل ، ووادي السرحان [١] .

وكان الهدف من رحلة شكسبير تحقيق أمرين أولهما إلهاء السعوديين عن متابعة توسعهم في الخليج بتوجيههم لمحاربة ابن رشيد ، والأمر الثاني إضعاف قوة الأتراك عن طريق محاربة حلفائهم آل الرشيد[٢] .

وفي هذا السياق أيضا تأتي رحلة (جون فيلبي Philby) الذي قام بأول رحلة له إلى الرياض ، بطلب من سلطات بلاده بريطانيا ، وقابل الملك عبد العزيز عام ١٩١٧م ، ثم عُيّن عام ١٩٢١م مندوبا سياسيا لبريطانيا في شرق الأردن ، الذي بقي فيه حتى عام ١٩٢٤م ، ثم ترك العمل الحكومي ، والتحق بخدمة الملك عبد العزيز ، وأعلن إسلامه عام ١٩٣٠م ، وغيّر الملك عبد العزيز اسمه وسماه عبد الله ، وعمل فيلبي مستشارا غير رسمي وقام برحلات مهمة في أنحاء الجزيرة العربية[٣].

وفي سياق الجهود البريطانية للسيطرة على تركة الدولة العثمانية بعد إعلان الحرب عليها كانت جهود الجاسوس البريطاني (توماس إدوارد لورنس) الذي أُطلق عليه اسم (لورنس العرب) لدوره في قيادة الثورة العربية ضد الوجود

---

(١) Winstone Captain Shakespear.p.224 ، بلاد العرب القاصية ٢٤٠ – ٢٤٩ ، فؤاد حمزة ، قلب جزيرة العرب ٣٨٠، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض ، ط ١٣٨٨/٢هـ ، بحث : أحمد العناني ، رحلة الكابتن وليم شكسبير المنشور ضمن كتاب مصادر تاريخ الجزيرة ٤٨٤/٢ – ٤٦٥ . (قتل شكسبير عام ١٩١٥م في معركة جراب مع الملك عبدالعزيز ضد ابن رشيد ، وعمره ست وثلاثون سنة) . الزركلي ، الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز ، دار العلم ، بيروت ، ط ١٩٧٧/٣م .

(٢) جمال زكريا ، مصدر سابق (٢٢/٢) .

(٣) فلبي ، بعثة الى نجد ، ترجمة :عبدالله العثيمين ، مكتبة العبيكان ، ط ١٤١٨/١هـ ؛ روبن بدول ١٠٢ ؛ البادي ، مصدر سابق ٤٠٩ – ٤١٠ ؛ المستشرقون ١١٦/٢ – ٣٤٥/٣ ؛ حمد الجاسر ، مقال " الحاج عبدالله فيلبي ومؤلفاته "جريدة الحياة ، الأعداد ١٢٣٥٦ ، ١٢٣٥٧ ، ١٢٣٥٨ . نذير حمدان : مستشرقون / ص٤٣ / مكتبة الصحوة / الطائف / ط١/ ١٤٠٨هـ ؛ واختصارا نقول : ان فيلبي من مواليد ١٨٨٥م في جزيرة سيلان ، وتوفي في بيروت عام ١٩٦٠م .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

العثماني ، مستغلا في ذلك تطلعات الشريف حسين بن علي حاكم مكة لتكوين امبراطورية عربية ، وسذاجة العرب وجهلهم[١] .

ولم يقتصر الأمر على البريطانيين فقط ، بل كانت هناك أطماع لبعض الدول الأوربية ؛ ولذا نجد (لويس موسل Alois Musil) الرحالة النمساوي الذي قام برحلاته مع قبيلة الرولة في الصحراء الشمالية من الجزيرة العربية ، وعاش معهم أكثر من سنة يرحل معهم ، وكان ذلك عام ١٩١٠م ، ثم قام برحلته الثانية قطع فيها صحراء النفوذ حتى وصل إلى حائل ثم أرسل مرة أخرى عام ١٩١٧م إلى المنطقة لرعاية المصالح النمساوية فيها .

وكانت رحلات موسل تهدف إلى الدعاية ضد الإنجليز وخططهم في المنطقة.

وكان يعمل لصالح ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ، ونظرا لخدماته المتميزة فقد أعطي لقب جنرال ، ثم عضوا في مجلس الشورى الإمبراطوري[٢] .

ولغايات سياسية وعلمية ، نضيف رحلة الألماني (جوليوس أوتنغ Julius Euting) الذي قام برحلته إلى الجزيرة العربية عام ١٨٨٢م[١]، والبلجيكي (باركلي رونكيير Barclay Raunkaier) في رحلته الى الرياض[٢].

---

(١) انظر كتابه : أعمدة الحكمة السبعة ، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان ط ١/١٩٩٨م ؛ بلاد العرب القاصية ٢٥١ – ٢٥٤ . (ولد لورنس عام ١٨٨٨م ، تلقى العلم في أكسفورد عام ١٩٠٧م ، ورحل إلى فرنسا ، وبلغ رتبة مقدّم في الجيش ، وانضم إلى الثورة العربية ، وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى عمل في سلاح الطيران الملكي ، وقد قُتل في حادث سير دراجة نارية عام ١٩٣٥م .آثاره : أعمدة الحكمة السبعة ، وثورة في الصحراء العربية) . أنتوني تاتنغولويل ثوماس ، لورنس لغز الجزيرة العربية ، مكتبة المعارف ، بيروت ١٩٨٢م .

(٢) بلاد العرب القاصية ٢٤٨ – ٢٤٩ ، روبن بدول ١٤٠، يوهان فوك ٢٨١ – ٢٨٥، البادي ٣٥٦ – ٣٥٨ ، وانظر مقدمة كتاب موسل .Arabia Deserta 1972 Czech Academy of Scinces And Arts, Prague

(ولد موسل عام ١٨٦٨م في بلجيكا ، وتخرج في جامعة براغ ، ورحل إلى الشرق وتعلم في معهد الآداب الشرقية ببيروت ، وقام برحلات متكررة في الجزء الشمالي من الجزيرة العربية ، واشتهر بمعرفته الواسعة بالأرض ، ودقته في رسم الخرائط ، وكان صديقا لأمير قبيلة الرولة : نوري الشعلان ، ونظرا لطول إقامته مع هذه القبيلة فقد صنّف عنها كتابا أسماه " أخلاق الرولة وعاداتهم " وقد قام بترجمة الجزء الأول منه : محمد السديس ، ونشرته مكتبة التوبة ، الرياض ، ط ١٤١٧/٢هـ ، وأهم كتبه : شمال الحجاز ، نقله إلى العربية : عبدالمحسن الحسيني ، نشر مؤسسة الثقافة ، الاسكندرية ، ١٩٩٨م ، الصحراء العربية ، تدمر وشمالي نجد ، وتوفي عام ١٩٣٨م ، ويُعد من أبرز الرحالة الغربيين) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ولادة بيرتون ونشأته :

ولد ريتشارد فرانسيس بيرتون (Richard Francis Burton) في مارس سنة ١٨٢١م[٣]، لأب عسكري (مقدّم في الجيش البريطاني) وكانت أُمّه تَدَّعي أنها منحدرة من سلالة أحد الأولاد غير الشرعيين ، للملك لويس الرابع عشر ، وكثيرا ما كان يقال إن أصله غجري[٤] .

ترك الأب الجيش بعد فترة قصيرة من ولادة ابنه ريتشارد ، وأخذ بالترحال إلى فرنسا وإيطاليا ، كان يرغب في أن يلتحق ولده بالكنيسة ، فأرسله إلى جامعة أكسفورد ، ولكن ريتشارد افتعل المشاكل ليطرد من الجامعة ، وهكذا تخلص من العمل في الكنيسة .

كانت بريطانيا في ذلك الحين هي الدولة المستعمرة الكبرى على الإطلاق من بين دول العالم ، وكانت ممالكها لا تغيب عنها الشمس ، فالتحق ريشادر بالجيش البريطاني ، فوصل إلى الهند في أكتوبر ١٨٤٢م كملازم ثان في القوات المسلحة لشركة الهند الشرقية ، وهناك برع في تعلم اللغات الأخرى وإتقانها ، ففي كل بضعة أشهر كان يتعلم لغة حتى إنه في أواخر حياته كان باستطاعته أن يتكلم تسعا وعشرين لغة ، وما لا يقل عن اثنتي عشرة لهجة ،

---

(١) أوتنغ ، رحلة داخل الجزيرة العربية ، ترجمة : سعيد فايز السعيد ، نشر : دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، ط ١٤١٩/١هـ ؛ البادي ١٦٩ .

(ولد أوتنغ في ألمانيا عام ١٨٣٩م ، وتلقى دراسته العليا في جامعات ألمانيا ولندن وباريس ، وتخصص في علم الآثار، وكان مع هوبر في رحلته ، وكانت وفاته عام ١٩١٣م) . المستشرقون٢/٣٨٤ .

(٢) انظر كتابه عبر الجزيرة العربية على ظهر جمل ١٧٦، ١٧٩ ، ترجمة : منصور الخريجي ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط١٤١٩/١هـ ؛ روبن بدول ١٤١ .

(كان رونكير يبلغ من العمر ٢٣سنة حينما قام برحلته الأولى والأخيرة الى الجزيرة العربية ، كان متخصصا في علم النبات ، ولذا نجده مهتما باعطاء معلومات عن الحياة الفطرية والطبوغرافية ، كما كان سليل أسرة سياسية علمية ، فوالده البوفسور : كريستيان رونكيير (١٨٨٦ – ١٩٣٨م) عالم النبات ، ووالدته الكاتبه والباحثة والروائية والشاعرة : وانجبورج (١٨٦٣ – ١٩٢٠م) ، وجده هو الذي حرر جنوب جزتلاند وأعادها إلى الدانمرك بعد أن اغتصبها الألمان عام ١٨٦٤، لقد كان هدف رونكيير الرئيس هو أن يهيء قاعدة لبعثة رئيسية دانمركية الى الربع الخالي ، وبعد عودته أصيب بالملاريا ، ثم بالسل ومات عام ١٩١٥م ، وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره) . للتوسع في ترجمته : انظر مقدمة كتاب : باركلي رونكيير .

(٣) بيرتون ، رحلة في أرض الحجاز ١/١، ترجمة : عبد الرحمن الشيخ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١٩٩٥/١م .

(٤) Edward Rice: Captain Richard Francis Burton P: 9

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وكان يستطيع أن يُقلّد ويتقمّص أيّ شخصية من أيّ جنس ، ويتحدّث لغتها ، ويبدو كأنه واحد منهم[١].

وأمام هذه المواهب لم يجد رئيسه الجنرال إلاّ وأن كلّفه بإعداد تقرير عن أماكن الرذيلة ، فوجد بيرتون متعة في هذه المهمة ، فأعدّها على أكمل وجه ، إلا أن هذا التقرير حطّ من منـزلته ، وشوّه سمعته فلُقّب بـ "دك الشرير" ، إضافة إلى محاولته اختطاف راهبة ، وما بدر منه من تصرفات غريبة ، كل ذلك أكسبه كره المسئولين عنه ، فمُنع من الاشتراك في حرب السيخ الثانية عام ١٨٤٤م مع أنه كان الضابط الوحيد الذي يتكلم لغة السيخ .

وبعد أن وجد كل الطرق سُدّت في وجهه في بلاد الهند ، قرر أن يأخذ إجازة مرضية طويلة ، فرجع إلى أوربا وقضى أربع سنوات في البحث والكتابة[٢].

ونظراً لتلك المزايا التي برز فيها بيرتون فقد استطاع عام ١٨٤٥م تعلم اللغة السانسكريتية بهدف تعلم لغة رهبان الهنادكة ، وألّف كتابا في قواعد اللغة الهندوستانية[٣] ، والتحق بفرقة البراهمة وبدأ بتعلم كتبهم مثل كتاب وادر ومور ، ودرس قصة الحمامة (توتا كسهاني) وغيرها من كتب المراجع الهندوكية ، وتفنّن في معرفة مذهب الهنادكة ، ووصل إلى الحد الذي لا يمكن أن يصل إليه أحد غير الهندي الأصلي ، حتى أنه أُجيز إلى المرتبة الأخيرة التي توصله إلى مرتبة أفضل الرجال ، وهي أفضل مرتبة في التعاليم الهندوكية، وأُعطي خيط البراهمية[٤] .

ثم تعلّم اللغة السيخية ، وكان له علاقة وثيقة بالسيخ .

---

(١) شارل ديدييه ، رحلة الى الحجاز ٤٩ ، ترجمة : محمد خير البقاعي ، دار الفيصل الثقافية ، الرياض ، ط١/١٤٢٢هـ ؛ روبن بدول : الرحالة الغربيون ٥٤-٥٥ ، ترجمة : عبد الله نصيف ، الرياض /١٤٠٩هـ .

(٢) . Edward Rice: Captain Richard Francis Burton P: 73-75

بيتر برينث ، بلاد العرب القاصية ١٤٦، ترجمة : خالد أسعد ، دار قتيبة ، دمشق ، ط ١/١٤١١هـ .

(٣) شارل ديدييه ٥٥ .

(٤) روبن ٥٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ونظراً لمهمته الجاسوسية فقد تظاهر بالإسلام ، ودخل مع الصوفية ومارس معهم الخرافات والخزعبلات ، وكان يرقص معهم حتى يصل إلى الحد الذي تسميه الصوفية (حالة) فيجرح جسده بالسيف والأشياء الحادة ؛ وقد بقيت هذه الطعنات ظاهرة في جسده حتى مات ، ثم ترقّى في درجات الصوفية حتى وصل إلى درجة (بسم الله شاه) في سنة ١٨٥٣م ، كان قبل ذلك مُريداً[١] لعدة سنوات ، اعترف بيرتون : بأنه انضم إلى الطريقة القادرية[٢] ، وأن أحد قادة هذه الفرقة - بعد ما اختبر بيرتون - رقّاه إلى درجة رفيعة في الطريقة القادرية وهي درجة المرش[٣] ؛ وبذاك أصبح عارفا - بدرجة كافية - بعقائد هذه الطريقة الشرقية وممارساتها[٤] .

ويزعم بعض الذين كتبوا عن بيرتون أنه كان يخطب في المساجد في بلاد السند ، وفي بلد بلوشستان[٥].

---

(١) المريد : هي أولى مراتب التصوف ، حيث يستلم فيها الشخص توجيهات شيخه مهما كانت ويظهر من أقوال بعض الصوفيين المغالين المدى الذي وصلوا إليه من مصادرة العقل والتفكير . (أنظر لأقوال أولئك : السهرودي ، عوارف المعارف ٤٠٣ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١٩٦٦/١م ؛ الشعراني ، الطبقات الكبرى ، مكتبة : محمد صبيح ،القاهرة) .

(٢) القادرية : احدى طرق التصوف ، وهي طريقة بغدادية تنسب إلى الشيخ : عبد القادر الجيلاني المتوفى عام : ٥٦١هـ/١١٦٦م ، ولهذه الطريقة فروع كثيرة ، ففي اليمن والصومال : اليافعية ، والمشارعية ، والعرابية ؛ وفي الهند : البناوة ، والكرزمر ؛ وفي الأناضول : الأشرفية ، والهندية ، والخلوصية ، والنابلسية ، والرومية ، وفي مصر : الفارضية ، والقاسمية ؛ وفي المغرب : العمارية ، والعروسية ، والبوعلية ، والجلالة ؛ وفي السودان الغربي : البكائية . (دائرة المعرف الإسلامية ،١٨٥، ترجمة :أحمد الشناوي وآخرون ، دار المعرفة ، بيروت ، ط ١٩٣٣/١م) . وللاطلاع على ترجمة الشيخ : عبد القادر، أنظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء٤٣٩/٢٠ ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١٤٠٥/١هـ .

(٣) هذه مرتبة متقدّمة جدا في سلك التصوّف ، وهي تعني الشيخ الذي يدل المريدين ، قال القشيري : " يجب عليه - المريد - حفظ سرّه حتى عن زرّه إلا عن شيخه ولو كتم نفسا من أنفاسه عن شيخه فقد خانه في حق صحبته ، ولو وقع له مخالفة فيما أشار عليه شيخه فيجب أن يقر بذلك بين يديه في الوقت ، ثم يستسلم لما يحكم عليه به شيخه عقوبة له على جنايته ومخالفته إما بسفر يكلفه ، أو أمر ما يراه " . (الرسالة القشيرية ١٨٢ ؛ عبد الرحمن عبد الخالق ، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ٣١٣ ، مكتبة ابن تيمية ، الكويت ، ط١٤٠٦/٣هـ) . وبوصول هذا الرجل النصراني الحاقد إلى هذه المرتبة عند الصوفية يجعلنا نتذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم : " تركتم على البيضاء ليلها كنهارها " . وقوله : " عليكم بسنتي وسنة الراشدين المهديين من بعدي عضّوا عليها بالنواجذ " . وقوله : " كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار " . ولمزيد من الاطلاع أنظر : برهان الدين البقاعي ، مصرع التصوّف ، تحقيق :عبد الرحمن الوكيل ، مكتبة الباز ، ١٤٠٠هـ) .

(٤) رحلة بيرتون إلى مكة والحجاز (٢٦/١) ، . Edward Rice:Captain Richard Francis Burton. - /P 206

(٥) Edward Rice . P:20

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لم يكتف بيرتون بالتعرف على الصوفية فقط ، بل التحق بالشيعة الإسماعيلية[١] وعمل مع لواء شالزنابييار في السند (باكستان حاليا) ، وكان يتجسس للواء في معرفة القبائل التي كانت تعاند الاستعمار ، فكان يمشي في الطرقات بلباس الفقير الذي لا يعرفه أحد ، حتى إن أحد زملائه الضباط قام بضربه ضربا مبرحا في إحدى المرات ، حينما وجده في أحد الطرقات ، ولم يعلم أنه بيرتون[٢] .

وفي سنة ١٨٤٤م أخذ إجازة والتحق ببلاد فارس ، وظل هناك حتى سنة ١٨٤٦م ، وتقمّص شخصية رجل فارسي ، وسمّى نفسه (عجمي) وهي العبارة التي تطلق على الفرس .

وقد قدّم خلال هذه الفترة خدمات جليلة لبلاده ، حيث كان أحد المشاركين في الانقلاب الذي حصل في بلاد فارس ، حينما تم طرد الملك الشاه في زمانه[٣] .

لقد أصابت أوروبا حمّى الاكتشافات الجغرافية من مطالع القرن السادس عشر الميلادي ، وكان الاستعمار الأوربي للبلدان المختلفة نتيجة منطقية لتلك الاكتشافات ، وكانت الجمعية الجغرافية في لندن مرتبطة ارتباطا وثيقا بأهداف الحكومة البريطانية ونواياها ، وقد قامت بتمويل العديد من الرحلات التي تخدم السياسة البريطانية الاستعمارية .

وفي خريف ١٨٢٥م عرض بيرتون خدماته على الجمعية الجغرافية في لندن لغرض إجراء بعض الاكتشافات في المنطقتين الوسطى والشرقية للجزيرة العربية ، ثم قام عام ١٨٥٥م برحلة إلى وسط إفريقيا ، في محاولة منه للتعرف على منابع النيل ، فكان أول أوروبي يصل إلى مدينة هرر في أثيوبيا عام ١٨٥٥م ،

---

(١) الإسماعيلية : فرقة باطنية ، انتسبت إلى الإمام إسماعيل ابن جعفر الصادق ، تحت ستار التشيع لآل البيت ، انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، ط٢/١٤٠٩هـ) .

(٢) رحلة بيرتون١/١٦٧ EDWARD RICE .P:4-20 .

(٣) انظر ما كتبه عنه موقع :ROWENA @ PINC.COM ، وعن معرفة بيرتون بالفرس ، أنظر : رحلة بيرتون (٦٧/١) ، و(١٣٨/٢) .

وتعرّض مُخيّمه لهجوم من الصوماليين ، فقتلوا واحدا من رفاقه ، أما هو فقد أصيب بضربة رمح في وجهه ، تركت عليه علامة طوال فترة حياته .

وفي عام ١٨٥٨م اكتشف بيرتون و سبيك.Speke,J[١] بحيرة تنجانيقا[٢] حينما كانا يحاولان اكتشاف منابع نهر النيل[٣].

وبعدها سافر إلى أمريكا وزار مدينة بحيرة الملح حيث تتمركز جماعة المورمينين[٤]، ودرس خلالها الناحية التقنية لفروة الرأس[٥].

وفي يناير من عام ١٨٦١م تزوج بيرتون من سيدة متدينة تنحدر من عائلة نبيلة اسمها إزابيل أروندل (Isabel Arandel) وبمساعدة من زوجته حصل على وظيفة قنصل في غرب أفريقا في البرازيل سنة ١٨٦٤م ، ثم عُيّن قنصلاً في دمشق سنة ١٨٦٩ ، وفُصل سنة ١٨٧١م ، ثم عين قنصلا في تريسيتا[٦] .

وخلال هذه الفترة تولت زوجته حزم الأمتعة ودفع النفقات ، ورافقته في جولاته حول العالم ، وكانت من أخلص الزوجات ، وما كتبته عن سيرة حياته يُعبر عن هيامها به[٧] .

ضجر بيرتون من الحياة المملّة في تريسيتا فتاقت نفسه للرحلة والتجوال ، وتذكّر قول أحد أصدقائه الذين قابلهم في القاهرة ، بأنه وجد صخرة من الذهب في أقصى المناطق الشمالية من الجزيرة العربية في أرض مدين

---

(١) سبيك ، جون (١٨٢٧ – ١٨٦٤م) : مكتشف انجليزي ، طوّف في أواسط أفريقيا واكتشف في منابع النيل العليا بحيرة فكتوريا في يناير عام ١٨٥٩م . (المستشرقون ٢/٥٦) .

(٢) تنجانيقا Tanganyika : بُحيرة كبيرة كبيرة في أفريقيا الشرقية بين زائير وتنزانيا وبوروندي ، مساحتها ٣١.٩٠٠كم٢ ، وأقصى عمقها ١.٤٣٥م ، وارتفاعها ٧٧٣م ، تقع في الأخدود الافريقي ، وتعتبر أعمق البحيرات الحلوة في العالم بعد بايكال في سيبيريا ، تشرف عليها منحدرات شديدة تجري فيها سيول جارفة ، وتصب فيها بحيرة كيفو ، حركة الملاحة فيها ناشطة ، ومن المرافىء المهمة عايها : بوجمبورا عاصمة بوروندي . (المنجد في اللغة والأعلام ١٨١/٢ ، دار المشرق ، بيروت ، ط ١٩٨٧/١٥م) .

(٣) شارل ديدييه ، مصدر سابق ٤٩ ؛ المستشرقون (٢/٥٩) .

(٤) طائفة دينية أمريكية أنشأها جوزيف سميث عام ١٨٣٠م (المنجد في اللغة والأعلام ٥٥٤/٢) .

(٥) بدول ٦٣.

(٦) المصدر السابق ٦٤ ؛ المستشرقون ٥٩/٢ – ٦٠ .

(٧) إيزابيل بيرتون : سيرة الرائد السيد ريشارد بيرتون ، في مجلدين من حوالي ١٣٠٠صفحة / لندن / ١٨٩٢ (المستشرقون٦٠/٢) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

القديمة [١]، وكانت اهتمامات بيرتون بالذهب قد ترسّخت في الهند ، وأصبحت لديه خبرة بالمناجم .

وفي تلك الفترة كانت خزانة حاكم مصر الخديوي إسماعيل باشا قد أفلست ، وأصبح في حاجة إلى المال ، فلما عرض عليه بيرتون الذهاب إلى أرض مدين ، لأنّ الذهب موجود هناك لم يتردد الخديوي في تمويل رحلته التي أبحرت من السويس ، يرافقها مهندس مناجم فرنسي ، ومجموعة من الجنود في نهاية شهر مارس من عام ١٨٧٧م ، وبعد ثلاثة أسابيع من البحث في المنطقة ، رجعت البعثة بمجموعة من العيّنات الحجرية والرمل والحصى .

واستطاع بيرتون أن يُقنع الخديوي بنجاح البعثة ، فتحمّس الخديوي لإرسال بعثة ثانية ، فجهّز بعثة كبيرة تألّفت من أربعة أوروبيين ، وستة من الضباط المصريين ، واثنين وثلاثين جنديا مصريا معظمهم من الزنوج المعتوقين ، وثلاثين عاملا، وطباخاً يونانياً، مع خادم وبحار، وحطّت البعثة رِحالها في مدين في ١٩ ديسمبر من عام ١٨٧٧م[٢].

كانت البعثة نشطة للغاية ، واستطاعت أن تُغطي ألفين وخمسمائة ميل في غصون أربعة أشهر ، ورجعت بخمسة وعشرين طنا من العيّنات ليس فيها قطعة واحدة من الذهب ، ولكنها أعطت أكبر مساهمة في زيادة المعرفة عن الجزيرة العربية ، وتُعد أهم بكثير من رحلته الأولى[٣] ، وبعد فشله في رحلته إلى أرض مدين القديمة في اكتشاف الذهب ، توجّه إلى غرب أفريقيا من أجل العثور على مناجم للذهب في جبال الكونغو ، ثم أخذ نشاطه ينحسر بسبب تقدمه في السن ، فقضى وقته في كتابة حكايات من قصص ألف ليلة وليلة الداعرة ، فأقبل عليها سواد الناس في أوربا بشغف بالغ ، وكانت حصيلته من نشر تلك الحكايات ١٦ألف جنيه استرليني[٤] .

---

(١) بلاد العرب القاصية ١٦٣ .

(٢) بدول ٦٤ ، بلاد العرب القاصية ١٦٣ .

(٣) بدول ٦٥ .

(٤) أسعد الفارس : (بحث) الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية .المنشور ضمن كتاب : الرحلات الى شيه شيه الجزيرة العربية ١/٥٩٠-٥٩١ ، دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، ١٤٢٤هـ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وتقديرا لخدماته للإمبراطورية البريطانية منح لقب ((فارس)) ، وفي سنة ١٨٩٠م توفي بيرتون ، وإحياء لذكراه فقد قامت زوجته ببناء ضريح متميز عند قبره ، في شكل خيمة البدو ، وذلك في مقبرة مورتلاك ، كما أنها أحرقت كل المخطوطات التي كتبها في سنواته الأخيرة لأنها اعتبرتها من كتب الرذيلة[١].

مؤلفات بيرتون

لقد ترك بيرتون مؤلفات عديدة تجاوزت الخمسين كتابا،فقد كتب في الطعن بالسلاح الأبيض، والطعن بالخنجر ، وهندسة المناجم، وعلم الآثار، والثعابين، والطب، والهندسة، وتسلق الجبال، والدين والجنس[٢]، ومن أبرز مؤلفاته:

١ - ثلاثة كتب عن الهند .

٢ - الحج إلى مكة والمدينة وهو من أوثق المراجع لدي الغربيين في جزأين (لندن١٨٥٢ ، ١٨٩٢، ١٩١٣) .

٣ -ترجمة ألف ليلة وليلة ، وهي ترجمة فريدة في مطابقتها للأصل في ١٦ مجلدا (لندن ١٨٨٥ -١٨٨٨) .

٤ - خطوات في أفريقيا الشرقية .

٥ - الطواف في أفريقيا الغربية .

٦ - سوريا غير المكتشفة .

٧ - زنجبار .

٨ - مناطق البحيرات في أواسط أفريقيا ، وهو من خير المراجع في الدراسات الأفريقية[٣] .

٩ - الصيد بالصقور في سورية[٤] .

---

(١) بدول ٦٦ .
(٢) بدول ٥٤ .
(٣) المستشرقون ٦٠/٢ .
(٤) شارل ديدييه ٤٨ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

رحلة بيرتون إلى مكة والمدينة عام ١٨٥٣م :

عرض بيرتون خدماته على الجمعية الجغرافية الملكية بلندن عام ١٨٥٢م لاكتشاف ما لم يتم اكتشافه من الجزيرة العربية ، وبالأخص في المنطقتين الشرقية والوسطى من الجزيرة العربية .

وكانت خطة بيرتون تهدف إلى الوصول إلى مكة والمدينة عن طريق مسقط مرورا بالربع الخالي[١] ، وقد أيّدت الجمعية الجغرافية تلك الخطة ، إلا أن شركة الهند الشرقية وهي المموِّلة للمشروع رأت أن الخطة محفوفة بالمخاطر ، ولكنها وافقت بدلا من ذلك على إعطائه إجازة لمدة سنة واحدة فقط لتعلم اللغة العربية[٢] ، واضطر بيرتون أمام هذا العرض أن يُغيّر خطته الأولى ، فقرّر البدء من مكة إلى مسقط ، مارا بالربع الخالي ، ومن مسقط يركب إلى الهند قبل انتهاء إجازته[٣] ، وكان بيرتون يأمل من خلال هذه الرحلة أن يحصل على بعض الخيول العربية للجيش البريطاني في الهند ، وجمع معلومات حول الربع الخالي ، والبحث في هيدروجرافية الحجاز (علم مصادر المياه ووصفها) ، والتثبّت من الفروق الفسيولوجية بين العرب[٤] .

غادر بيرتون ميناء ساوثهامتون في أبريل من عام ١٨٥٢م متنكرا في زي سيد إيراني ، وفي أثناء الرحلة الأولى حاول أن يتقن تنكّره كمسلم ، وبدأ يتعلم كيف يتصرف المسلمون بعد شرب الماء ، وأثناء الجلوس ، وبعد الأكل ، وغير ذلك[٥]، وبعد شهر من وصوله إلى الإسكندرية قام بتغيير شخصيته واسمه من : ميرزا إلى الشيخ عبد الله[٦] أحد الدراويش المتجولين ، وانضم إلى إحدى الطرق الصوفية وهي الطريقة القادرية ، ثم رقّاه شيخ الطريقة إلى درجة مرشد [٧] .

---

(١) رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ١٥/١ .

(٢) المصدر السابق ١٥ .

(٣) المصدر نفسه ١٧ .

(٤) المصدر نفسه ١٧ .

(٥) المصدر نفسه ٢٠ .

(٦) شارل ديدييه ٥٥ ، ٧١ .

(٧) رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ٢٥/١ -٢٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويُفصح بيرتون عن سبب تقمّصه لشخصية الدرويش فيقول :

((ليس هناك شخصية في العالم الإسلامي ملائمة تماما للتنكّر أفضل من شخصية الدرويش، فهي شخصية تتقمّصها كل الطبقات، وكل الأعمار ، وكل المذاهب ، يتقمّصها الشخص ذو المقام الرفيع الذي يتعرض للخزي في مجالس الحاشية ، ويتقمّصها الفلاّح الذي وصل مستواه إلى الحضيض ، ويتقمّصها الصانع الذي أرهقته الحياة ، ويتقمّصها المبتلى بمرض بغيض ، والذين يتوسّلون رغيف الخبز من باب إلى باب .

وأكثر من هذا فالدرويش يحل له ما لا يحل لغيره ، فمن المسموح له أن يتخطّى قواعد اللياقة والأدب ، باعتباره شخصاً ليس من أهل الدنيا (تخلّى عن الدنيا وما فيها) ، فقد يصلّي وقد يمتنع عن الصلاة ، وقد يتزوج أو يبقى عزبا كما يشتهي ويهوى ، وهو محترم سواء ارتدى ثيابا من صوف غليظ ، أو ثيابا موشّاة بالذهب ، فلا أحد يسأل هذا المتشرد ذا الحصانة لِمَ يأتي هنا ؟ أو لِمَ يذهب هناك ؟ وقد يقطع طريقه وحيدا سائرا على قدميه ، وقد يركب بغلة عربية يتبعها اثنا عشر خادما، وهو يبعث على الرهبة دون أن يحمل سلاحا ، وقد يختال في الطرقات مُدجّجا بالسلاح ، فهو أعلى الناس مقاما وأكثرهم اتساما بالعدوانية ، وهو يحظى باحترام من الناس أكثر مما يحظى به الآخرون .

وهذه المزايا مطلوبة للرحّالة ذي المزاج الحاد ، ففي ساعة الخطر الوشيك ما عليه إلى أن يصبح ممسوسا (به جِنة) فيصبح آمنا ، فالمجنون في بلاد الشرق يشبه الشخصية الغريبة الأطوار في بلاد الغرب ؛ إذ يسمح له أن يقول أو أن يفعل ما تمليه عليه الأرواح ، فإذا أضفت إلى شخصية الدرويش قليلا من المعلومات الطبية ، ومهارة متوسطة في السحر ، وشُهرة بأن همّك الوحيد هي قراءة الكتب ، بالإضافة إلى رأس مال كاف لينقذك من الموت جوعا ؛ فإنك بذلك تصبح ذا مزايا خاصة في بلاد الشرق .

والخطر الوحيد في الاندماج في سلك الطرق الصوفية هو أن ثياب الدرويش الممزقة لا تغطي تماما العورة ؛ فإذا حُوصرت في جماعة من هؤلاء الإخوة فقد

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تصبح على كره شريكه " تحت العصا أو فوق الوتد"[١] ؛ لأنه من المعلوم أن الدراويش على نوعين :

الدراويش الشرعيون الذين ينفذون تعاليم الدين .

والدراويش اللوطيون ويشيرون لممارساتهم بإشارات باطنية مؤداها " أننا وهو " مظهر لشيء واحد ، وقد حدْث أن انضممت إليهم لفترة أسبوع ، وفي نهاية هذه المدة غادرتهم وأنا في حالة رعب وتقزز، وعدت من حيث أتيت))[٢].

ومن الإسكندرية أخذ بيرتون مركبا تجاريا عبر النيل إلى القاهرة ، وسكن في فندق شعبي ، وباشر عمله طبيبا ، وبدأ يحضر دروسا دينية[٣].

وبعد أن سكر بيرتون وعربد في إحدى الليالي مع ضابط ألباني ، خشي من انكشاف أمره وعجّل بالسفر عن طريق سيناء إلى السويس ، ومن هناك استقل سفينة إلى ينبع ، ثم تابع رحلته إلى المدينة ووصلها في ٢٥يوليو عام ١٨٥٣م ، وكتب مشاهداته في المدينة بتفصيل ودقة ، وكان قد عقد العزم على الذهاب من المدينة إلى مسقط ، وكان قد اتفق وهو في طريقه إلى المدينة مع رجل اسمه مجرم من قبيلة الحوازم ، لكي يُرتّب له السفر إلى مسقط ، ولكن المعركة التي دارت بين الحوازم والأحامدة غرب المدينة وضعت نهاية لتلك الرحلة التي كان بيرتون قد خط لها[٤] .

كما وجد بيرتون أنه ليس من المصلحة الذهاب إلى مسقط لأن ذلك يتطلّب حوالي عشرة أشهر ، وهي مدة كفيلة بفقدان وظيفته ، حيث كانت الأوامر

---

(١) في هذه الكناية التي أوردها بيرتون يتضح معنى الانحراف لدى هذه الفرقة .

(٢) رحلة بيرتون ٢٦/١ -٢٧ ، ولقد سقت هذه المعاني التي ذكرها بيرتون عن الدراويش ليتضح مدى الجهل والتخلف والبعد عن تعاليم الدين التي أصيب بها المسلمون ، في عصور الانحطاط .

(٣) المصدر السابق ١٦٧/١ .

(٤) المصدر السابق ١٦٢/٢ -١٦٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الصادرة إليه تطلب منه التواجد في بومباي قبل نهاية شهر مارس ، كما كان يرغب في مشاهدة مكة ، وكيف يؤدي المسلمون شعائر حجّهم هناك[١] .

وفي الحادي والعشرين من سبتمبر عام ١٨٥٣م وصل بيرتون إلى مكة ، وقام بأداء مناسك الحج مع المسلمين .

شخصية بيرتون

أ - أخلاق بيرتون :

كان بيرتون مشاكسا محبّا للمتاعب منذ بداية شبابه ، فقد فُصل من جامعة أكسفورد بسبب قسوته وشراسته مع زملائه ، ثم بعد التحاقه بالعمل في القوّات البريطانية الهندية ، اختار العمل الصعب وهو التنكّر بين الناس والتجسس عليهم .

كان بيرتون مدمنا على تناول المخدرات ، ومعاقرا للخمر[٢]، كما أنه كان زير نساء صاحب علاقات كثيرة بهن ، حتى إنه أخذ مرض الزهري من إحدى الفتيات بمصر[٣]، وهو مخترع (كاما سوترا) وهو عبارة عن نظريات جنسية للعلاقة بين الرجل والمرأة[٤]، ومؤلفاته خير دليل على أخلاقه ومصنفاته ، واهتماماته بالرذائل أكثر من اهتماماته بالفضائل[٥].

ب - جاسوسية بيرتون وخدماته الاستعمارية:

منذ التحاق بيرتون بالعمل في القوات البريطانية في الهند وهو منخرط في الجاسوسية ، التي أعطاها كل وقته ، بسبب قدرته الكبيرة على التنكر ، وتعلّم اللغات واللهجات ، ولذا نجده يخالط البراهمة والمسلمين والإسماعيلية ، وأخيرا العرب ، كل ذلك من أجل الحصول على المعلومات الكافية لخدمة الاستعمار البريطاني .

فمثلا في رحلته إلى مصر والحجاز ، نجد عباراته تنضح بالغايات والأهداف الاستعمارية حيث يقول :

---

(١) المصدر السابق ١٦٢/٢ .

(٢) رحلة بيرتون ١١٨/١، بلاد العرب القاصية ١٤٥. ,Edward Rice,201

(٣)- Edward Rice,p178

(٤) Edward Rice,3 -10

(٥) Edward Rice,3 -10

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

((طبيعة المصريين كالطبيعة البشرية في كل مكان تتسم بالتناقض ، إنهم يكرهون الأوربيين ويحتقرونهم ومع ذلك فقد استكانوا طويلا للحكم الأوروبي - يقصد بذلك الحملة الفرنسية (١٧٩٨ -١٨٠١م) - فهذا الشعب يُبدي إعجابه باليد الحديدية والحكم المطلق الشجاع ، ويكره الحكم الاستبدادي الرعديد ، الذي سحقهم سحقا))[١] .

((ومصر قادرة على تجهيز ١٨٠.٠٠٠ مقاتل ، وقادرة على دفع ضرائب ثقيلة ، ويمكن أن تُقدم فائضا كبيرا ، فلو وقعت مصر في أيدي الغرب سهّلت السيطرة على الهند ، ومكّنت من فتح أفريقية الشرقية كلها بشق قناة للسفن تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عند السويس .

وليس من خوف كثير من تعصب المصريين ، فقليل من التدبير يكفي للسيطرة على المسجد . . . وباختصار فمصر هي أكثر الجوائز إغراء ، بحيث تجعل الشرق يبعدها عن أطماع أوروبا إنها أهم حتى من القرن الذهبي))[٢] .

ج - تحليلات بيرتون

تتّسم تحليلات بيرتون بالدقة والمعرفة ، ولعل الذي ساعده على إعطاء آرائه الصائبة في كثير من الأمور ، هو معايشته الطويلة لفئات الإسماعيلية والصوفية في بلاد الهند ومعرفته بأسرار هاتين الفرقتين ، ثم تغلغله أيضا في أوساط المسلمين سواء كان ذلك في الهند ، أو مصر ، أو الحجاز .

لقد كان انطباع بيرتون عن الرأفة لدى المسلمين مُنصفا وواضحا ؛ فحينما كانوا في السفينة المتوجهة من السويس إلى ينبع قام الكل بمساعدة المرأة التي مرض أطفالها وتعاونوا معها وساعدوها ، وقد أسر هذا المنظر بيرتون فكتب معلّقا : ((وليس في وسع أي أجنبي يكون حاضرا هذه المشاهد دون أن يحمل انطباعا أبديا بأن أهل الجزر البريطانية ليسوا إلا برابرة محدثين))[٣] .

---

(١) بدول ٦٣ .
(٢) رحلة بيرتون ٩٩/١.
(٣) المصدر السابق (١٧٢/١) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يملك بيرتون تحليلا منطقيا لتصرفات الشعوب وخاصة أنه عاش في الهند ، وعرف كيف يستعبد الإنسان أخاه الإنسان تحت شعارات طبقية أو مالية أو سياسية ، فهو مثلا حينما يجد تلاعب الموظفين في مصر ، وعدم أداء أعمالهم ، وانتهارهم للناس يقول : ((هناك ثلاث طرق للتعامل مع الموظفين الآسيويين وهي الرشوة، أو التنمّر (التهديد) ، أو بإزعاجهم ، والمثابرة مثابرة لحوحة ، بمداومة حضورك مصحوبا بمعارفك))[١] ، ونظرا لتلاعب الموظفين وعدم مبالاتهم ، نجد بيرتون يقول حينما ضاع عليه الوقت وهو يراجع الموظفين في مصر : ((وهكذا ضاع يوم آخر بطريقة شرقية))[٢].

ويتحدث عن معاناة الشرقيين مع أنظمتهم ومدرائهم فيقول : ((ترى شخصا جاثما فوق الأرض ، ليضيع هباء ست ساعات تحت الشمس الحارقة ، ينتظر في صبر حضور مسئول أو إنجاز معاملة . . .))[٣] ، ويحلل بيرتون شخصية الرجل الشرقي فيقول : ((إن الاحترام الشخصي في الشرق قائم على الخوف))[٤] .

والتعبير الذي يصدم الآذان في تأجيل ما يتحتّم عمله اليوم إلى وقت لا حق هو" إن شاء الله بكرة " .

"وهذه المماطلة وعدم أداء الأعمال في أوقاتها سمة سائدة على نحو أو آخر في كل أنحاء الشرق"[٥] .

د - إسلام بيرتون

لقد خاض كل من كتب عن بيرتون في قضية مهمة حول حقيقة إسلامه ؛ وللإجابة عن هذا التساؤل يحسن أن نعرض إلى أمر في غاية الأهمية وهو : أن ادعاء بيرتون الإسلام ، واندماجه في الصوفية ، ثم بعد ذلك مع الإسماعيلية ، إنما كان بدافع تجسّسي لمصلحة بريطانيا ، التي ينتمي إليها ويعمل من أجلها ، وحتى في رحلته يُظهر الازدراء

(١) المصدر نفسه (٣٢/١) .
(٢) المصدر نفسه (٣٣/١) .
(٣) رحلة بيرتون (٣٧/١) .
(٤) المصدر السابق (١٧٤/١) .
(٥) رحلة بيرتون (١٥٥/٢) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والاحتقار للمسلمين وشعائرهم ، الأمر الذي يؤكد أنه لا يزال على نصرانيته ، ولم يدخل في الإسلام إلا نفاقا ، ومن أجل تحقيق غاياته الاستخباراتية ، ولا أدل على ذلك من قوله وهو في مكة : ((ها قد وصلت أخيرا إلى هدفي بعد رحلة طويلة شاقة ، وحقّقت الآمال التي تراودني منذ سنوات ، كانت الكعبة الضخمة تنتصب أمامي ، وقد غمرها سحر من نوع غريب ، ويمكنني القول بأنه من بين جميع المصلّين الذين كانوا يتمسكون بأستار الكعبة لم يكن أي منهم يحس بعاطفة أعمق من عاطفتي ، ولكن لابد أن أعترف - بتواضع - بأن الشعور الذي كان ينتاب هؤلاء هو الشعور الديني المتأجّج ، بينما كان يتملّكني الإحساس بالزهو ، والاعتداد بالنفس))[١] ، لقد ادّعى البعض : بأن بيرتون بعد التحاقه بعمله كقنصل في دمشق مابين عامي ١٨٦٩ - ١٨٧١م أنه قد أسلم ، وانتسب إلى الطريقة الصوفية الشاذلية[٢]، ويقال بأن تحوله للإسلام كان وراء إنهاء خدماته في دمشق ، واستدعائه إلى بريطانيا عام ١٨٧١م [٣] . ومن الصعب نفي إسلام بيرتون أو إثباته بعد هذه الفترة إلا أنه من خلال بعض الدلائل والشواهد يمكن أن نكوّن تصورا عاما عن ميول بيرتون نحو الإسلام .

جاء بيرتون من بيئة كاثوليكية إنجليزية، وكان مُتشبعا بالروح الصليبية في مفاهيمه عن الإسلام ، ومع ذلك نجده يميل إلى الإنصاف حينما يتحدث عن الإسلام وعن الرسول ﷺ ، فحينما وجد بيرتون الناس في المدينة تعتقد في بعض الجبال والقبور ، وأنها تنفع وتضر من دون الله قال مُعلقا : ((وربما كان هذا

(١) Burton, Personal narrative of apilgrimage to AL-Madinah and Meccah London.1855. Vol.p.114.

وانظر نفي شارل ديدييه اسلام بيرتون حينما قابله في القاهرة بعد رحلته تلك بسنتين عام ١٨٥٤م . (رحلة الى الحجاز ٤٩،٥٥) .

(٢) الشاذلية : فرقة صوفية سميت بهذا الاسم نسبة لأبي الحسن علي بن عبدالله الشاذلي ، ولد بشاذلة في تونس ، عام ٥٩٣هـ/١١٩٦م ، أقبل على العلم منذ صباه ، ولما كُفّ بصره انقطع لطريق الصوفية ، وانتشرت طريقته في المغرب والجزائر وتونس ، وقد حج عدة مرات ، وقد توفي وهو عائد من الحج عام٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، في حميرة وهو يجتاز صحراء مصر ، ويقال بأن طلابه ومريديه لايعرفون الخلوة ، ولا الذكر الصاخب ، ولا أي ضرب من ضروب الشعوذة ، وللشاذلية عدة أحزاب وهي : كتاب الاخوة ، الحزب الكبير ، حزب النصر ، حزب الطمس على عيون الأعداء ، حزب الفتح ، صلاة الفتح. . . الى الأخير (دائرة المعارف الإسلامية ٥٦/١٣ – ٦٣) .

(٣) سمير عطا الله ، قافلة الحبر ٩٢ ، بيروت ، ط ١٩٨٨/٢م .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

من البقايا العديدة للوثنية القديمة ، التي تسللت للإسلام ، وانحدرت إليه ، وجرت العادة بعد ذلك أن تشكلا صرح الإسلام))[١] ، وفي زيارته لقبور شهداء معركة أحد حيث انتظر الحارس المكلف بفتح باب الأضرحة فقال: ((لقد سحب العربي من جيبه بوقار بالغ مجموعة مفاتيح ، وطلب مني بحدة أن أقف بعيدا بحيث لا أرى الباب ، وعندما أطعته بدأ صوت الصرير المنبعث من القفل يعلو ، وبدأ في سحب المزلاج ثم شرع بفتح الباب ببطء شديد ، ويهز هزا شديدا ليحدث أكبر قدر من الضوضاء ، والسبب في هذا الحذر أن الضوضاء أو الصرير يمثل شعرا وإن كان بلا معنى ، فهم يعتقدون أن أرواح الشهداء تغادر المبنى إذا كانت خاوية من المعنى، أو كانت مشيّدة من طين لا روح فيه فأرواح الشهداء تغادر شغوفة بالاجتماع معا لتتحدث في جو روحي فالعيون الوثنية النجسة يجب ألا تطالع هذا المنظر ، يالها من صورة عظيمة تلك التي يراها هؤلاء العرب الخياليون إنهم يتصورون الأصابع المهيبة للأولياء (القديسين) فالأرواح بالنسبة للمسلمين ، تشبه أرواح الأوربيين القدماء))[٢] .

كما نجده منصفا حيال حياة الرسول ﷺ أمام اعتقادات جهلة المسلمين وعوامهم ، فبعض أولئك يقولون : بأن محمدا ﷺ أحضر الكعبة وعَرَفة إلى المدينة ، وكل المواضع التي يزورها الحاج في مكة نقلها أيضا إلى المدينة . . . فعلّق على ذلك بقوله : ((وإنّي أُحذر القارئ من انتصار نبي الإسلام لهذه الخرافات الصبيانية))[٣].، لا شك أن بيرتون رجل ذكي قادر على الوصول إلى الحقيقة ، وخاصة أنه جريء وشجاع اطّلع بنفسه على أمور عديدة ، تتعلق بالمذاهب والفرق والأديان ، وقد عرف الصوفية بخرافاتها وخزعبلاتها ، كما عرف الإسماعيلية بباطنيتها وإلحادها وزندقتها ، وعرف أهل السنة الصادقين - بالرغم من قلتهم - وبعد مقارنته لتلك المذاهب ، نُقل عنه أنه قال : ((إن الذي هم على الحق هم السنيّون))[٤]. لقد ألّف بيرتون رسالة عن الإسلام ولم

(١) رحلة بيرتون ١٢٦/٢.
(٢) ١٣١/٢ .
(٣) رحلة بيرتون ١٧٣/٢ .
(٤) . nomena @ pinc.com

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تطبع في حياته ، إنما طُبعت بعد موته ، لخّص فيها الأسباب التي أدّت إلى اعتناقه الإسلام ، وترْكه الأديان الأخرى وخروجه منها حتى النصرانية[١]، ولكن زوجته إيزابيلا زعمت أنها تحتفظ برسالة من زوجها قبل وفاته بسنة ، يؤكد أنه لا يزال على مذهب الكاثوليك [٢].ولكن الشك يراودنا في زعم زوجته، بسبب تعصّب هذه الزوجة للكاثوليكية وقوة تديّنها ، إضافة إلى أن إيزابيلا ذكرت أن زوجها كان يقفل عليه الباب في غرفته ، وأنّها كانت تلاحظ صلاته التي لا تشبه صلاة الكاثوليك ، بل تشبه صلاة المسلمين ، وكان يأتي بالأذكار بعد الصلاة[٣] .

وإني أظن أن بيرتون قد دخل في الإسلام في أواخر حياته ، ويؤكد ذلك رسالته عن الإسلام ، إضافة إلى شهادة زوجته المتدينة ، التي تؤكد أن بيرتون يصلي صلاة تشبه صلاة المسلمين ، أمّا زعمها بأنه مات على الكاثوليكية فيمكن أن نعرف دوافعها باعتبارها كاثوليكية متعصبة ، وهي نفسها قد قامت بإحراق جميع مخطوطات بيرتون التي كتبها في أواخر حياته باعتبارها - على حد قولها - من كتب الرذيلة[٤] وربما كانت هذه المخطوطات (أو بعضها) تؤكد اقتناع بيرتون والتزامه بالإسلام في آواخر أيام عمره والله أعلم .

وإضافة إلى ما سبق عن أهمية هذه الرحلة ؛ فإن صاحب الرحلة (بيرتون) شخص متمّرس وضابط سابق ، وجاسوس قدير قدّم خدمات لبلاده ، فملاحظاته مهمّة ، تحمل قدرا كبيرا من الدقة والمصداقيّة .

(١)Edward Rice,p.201
(٢)Edward Rice,p.604
(٣)Edward Rice,p595 -610

(٤) بدول ٦٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة